خالد محمد خالد

في رحاب عليّ

الطبعة الثالثة



دار المعارف

فى رحاب علىّ

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع.

قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ

صدق الله العظيم

مراجع تاريخية

١ – البداية والنهاية	: جـ ٧ ، ٨	– لابن كثير
٢ – الإصابة فى تمييز الصحابة	: جـ ٢ ، ٤	– لابن حجر
٣ – السيرة النبوية	:	– لابن هشام
٤ – الطبقات الكبرى	: جـ ٣	– لابن سعد
٥ – أسد الغابة	: جـ ٤	– لابن الأثير
٦ – الرياض النضرة	:	– لأبى جعفر الطبرى
٧ – الأخبار الطوال	:	– لأبى حنيفة الدينورى
٨ – شرح الزرقانى على المواهب اللدنية للقسطلانى	: جـ ١	– الزرقانى ، والقسطلانى
٩ – وقعة صِفّين	:	– نصر بن مُزاحم
١٠ – فضائل الإمام على	:	– محمد جواد مغنية

فى هذا الكتاب

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدّمة

إنها لمحاوَلةٌ صعبة . . مُحاوَلةُ تلخيص حياة « الإمام » وسيرته بين « دَفّتَىْ كتاب » . ! !

والحق أقول لكم : لقد حاذَرْتُ هذه المحاولة من قبل . وهربتُ منها .

فبعد أن قدمت كتابَىَّ : « وجاء أبو بكر » . . و « بين يدى عمر » . . استقبلت سيرة « الإمام عَلِىٍّ » لأحظى بشرف تصويرها وتقديمها ، بَيْدَ أنى لم أكد أفعل حتى غَشينى تهيُّب شديد لم يَخفَ علىّ سببه .

فحياة « الإمام » لا سِيما فى مرحلتها الأخيرة ، التى بدأت باستخلافه وانتهت باستشهاده ، لم تكن حياة عادية .

إنها حياة أخرى ، تتطلب مواجهةُ تاريخها المكتوب مُستوى غير عادىّ من يقظة الذهن ، وَجلَد الأعصاب .

لقد كانت حياة تتفجر عظمة ، وجلالاً ، وإعجازاً . . ولكنّها - أيضًا - تمُوج بالأسى والهول موجاً . . ! !

حياةٌ الّتى فيها النصر والهزيمة . . المقدرة والورع . . البأساء والضراء . . البطولة والألم . . العظمة والمأساة . . لقاء بلغ فى جيشانه واحتدامه ذروة خطر فريد يجعل مواجهته - ولو فى صورة كلام مسطور - أمراً صعباً ومهيباً . .

من أجل ذلك تهيبت الموضوع كله .

كما تهيبت رؤية « البطل » فى أيامه العصيبة حيث المؤامرات والفتن والحروب تقعد له بكل مرْصَد . . ! !

كما تهيبت الصراع الرهيب يَنْشِب بين المسلمين ، ويُقدِّم بعضهم بعضاً حِنطةً لرحاه . . ! !

* * *

هنالك غَيَّر « زورقى » اتجاهه ، واستقبلت نفراً كبيراً من أصحاب رسول الله ، حيث قدمتهم فى كتابى : « رجال حول الرسول » .

وخلال لقائى المتساوِق مع أولئك الأصحاب الكبار ، أخذت أعتاد شيئاً فشيئاً مواجهة القضية التى أجفلتُ بالأمس من مواجهتها ، وانْثال على روعى كثير من الطمأنينة والفهم ، حيث واتتنى القدرة على تلبية أشواقى إلى رحاب الإمام . .

* * *

بيد أنى لم أكد أفعل حتى فاجأنى إشكال جديد ، ذلك أنى بما أكتب من سير وتراجم . لا أُريد أن أقدم كتب تاريخ ذات نهج مدرسى ، إنما يعنينى رُوح التاريخ . .

أجل . . إننى لا أُوَرِّخ للوقائع . . وإنما أؤرخ للعظمة الإنسانية المسْتكنة فى الوقائع والأحداث . .

وطريقتى أن أصحب التاريخ فى كل تفاصيله بل ومتاهاتِه ، ثم أعود من رحلتى هذه ، لأصوغ رؤيتى التاريخية فى شىء أشبه باللوْحة يتألق عليها جوهر الشخصية ، وحظها المتفرد من التفوق والعظمة

وفى سيرة « الإمام على » تزدحم التفاصيل ، والوقائع ازدحاماً لا يؤْذن بانتهاء . . حتى لقد خشيتُ أن أزيغ عن نهجى فى زحمة تلك الأحداث الرهيبة والوقائع التى تملأ الزمان والمكان .

لكنى لم أكد أمضى على الطريق حتى صادفنى يُسرٌ عجيب ، جعلنى أهتف من أعماق روح شاكرة :

– ألا حيّا الله بركاتِ الإمام . ! !

وهكذا ، لا تجىء هذه العبارة : « فى رحاب الإمام » مُجرد عنوان لكتاب . .

إنما هى تعبير متواضع عن ذلك الذُّخر المفيض الذى يجده الميمّمون وجوههم صَوْبَ « عَلىّ » – الحوارىّ العظيم للرسول . . والابن البارّ للإسلام . !

فَمِن عظمة نفسه ، ونُبل شمائله ، وإعجاز بيانه وبَلائه ، تَنداحُ رحاب ليس لها أبعاد ، تتلألأ عليها بطولات وتضحيات ، عظائم وأمجاد ، تكاد تحسبها – لولا صِدقُ التاريخ – أحلاماً وأساطير . ! !

* * *

ولكم وَددتُ لو يطول فى هذه المقدمة حديثى . . فما أجمل القول عندما يكون موضوعه رجل من طراز « عَلى » بيد أنه ليس من حقى ، وقد دعتنا مقاديرنا السعيدة للقاء الإمام على هذه الصفحات ، أن أُطيل وقفتكم على الباب . .

فلأفْسح لكم الطريق لِتفْضُوا إلى رحاب ما أثْراها ، وما أبرها من رحاب . . !

* * *

ويا أبا السِّبْطَيْن . .

يا أبا الحسَنَيْن . .

إذا كنا نُجاوز قَدرنا بهذا اللِّقاء ، فإن عظمة نفسك الراضية الزاكية تعطينا حق الرجاء ، فى أن تتقبلنا ضيوفاً على سيرتك الوضيئة الجليلة . .

وضيوفاً على رحابك المُفيئَة الجزيلة . .

صلَّى الله عليك . .

خالد

الفصل الأول

الابن والحفيد

وَوُرِّثَ فَرعَ المجد من آل هاشم
وجاء كريماً مِن كِرامٍ أَمَاثِلِ ! !

جلس الفتى مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، وسط القوم الذين أحاطوا بوالده ، وهو يُحتضَر . .

كان احتضار أبيه يَشغَلُه ويحزنُه .

لكنه مع ذلك ، وربما فوق ذلك ، كان يشغله ويستغرق وعيه وفطنته ، ولعُه الشديد بأن يرى : كيف يلتقى الاثنان وجهاً لوجه ، البطولة والموت . . ! !

ألا إنها لفرصة فريدة للفتى المشغوف بالمعرفة ، فإن مُمثل البطولة فى زمانه يتهيأ الآن للرحيل ، ويقترب الموت منه فى حفاوة صديق !

فلينظر الفتى – ما شاء – كيف يواجه الأبطال الموت .

* * *

وتململ الشيخ المحتضر فى فراشه ، وأشار إلى الذين حوله لينهضوه قليلاً . . حتى إذا أقاموا ظهره ورفعوا رأسه ، عانَقَتْهم من عينيه نظرات حانية ، امتدت واتسعت حتى وجدوا بَرْدَها فى صدورهم . .

ثم راح يوجه إليهم كلمات ، أراد أن تكون آخر عهده بهم ، وبالدنيا ! !

[يا معشر قريش . .
أوصيكم بتعظيم هذا البيت – الكعبة –
فإن فيه مَرضاة الرب ، وقوام العيش . .
[صِلُوا أرحامكم ، ولا تقطعوها ،
فإن صلة الرحم مَنْسَأةٌ فى الأجل . .
[اتركوا البغى ، فقد أهلَكَ القرون من قبلكم . .
[يا معشر قريش . .
أجيبوا الداعى ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحيـــاة وشرف الممات . .
[وعليكم بصدق الحديث . وأداء الأمانة . .
[ألا وإنى أوصيكُم بمحمد خيراً ، فإنه الأمين فى قريش ، والصادق فى العرب ، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به . .
[ولقد جاءنا بأمر قَبِلَه الجنان ، وأنكره اللسان ، مخافة الشنآن . .

[وَأَيْمُ الله لكأنّى أنظر إلى صعاليك العرب ، وأهل الأطراف ، والمستضعفين من الناس ، قــد أجابوا دعوته ، وصدَّقوا كلمته ، وعظَّموا أمره ، فخاض بهم غَمرات الموت . .

[وَلكأنى به وقد مَحَضَتْه العرب ودادَها ، وأعطته قِيادَها . .

[والله ، لا يسلُك أحد سبيله إلا رَشد ، ولا يهتدى بهديه إلا سَعد .

[ولو كان فى العمر بقيَّة ، لكَففتُ عنه الهزَاهز ، ولدفعت عنه الدواهى] .

* * *

ثم وضع عينيه على أهله الأقربين من بنى هاشم ، واختصّهم بوصية أخرى .

[. . وأنتم يا معشر بنى هاشم

[أجيبوا محمداً ، وصدِّقوه ، تفلحوا وترشدوا] ! !

وأومأ إليهم ، ليعيدوه إلى ضجعته الأولى ، واستوى تحت غطائه . . وعَبرت لحظات ، تغشَّته بعدها سكِينَةُ الموت ! !

* * *

لقد أدَّى الراحل المسَجَّى ، آخر الأمانات لديه . . أمانة كان

يُحاذِرُ أن تُعجزه رهبة الموت عن أدائها ! !

ومال رأسه المثقلُ بالخوف ، على صدره المثقل بالإشفاق . .

ولكن . . الخوف مِمّن . . ؟

والإشفاق على مَنْ . . ؟

الخوف من قريش . . والإشفاق على ابن أخيه الذى حشدت قريشٌ له كل كيدها وبأسِها ، لأنه يهتف فيهم : أَنْ « لا إله إلا الله » . . ! !

أعرفتُم الآن عمَّن نتحدث . . ؟

أَجلْ – إنه هو . . أبو طالب ، شيخ قريش ، وسَيد جيله . .

وأما الفتى الذى كان يجلس مبهور الأنفاس ، مشدود المشاعر ، فهو ابنُه وفتاه : علىّ بن أبى طالب ! !

انظروا . .

ها هو ذا ، يُقبّل جبين أبيه ، ثم يسجّيه ، ثم ينهض فى ثبات ليدبّر أمره . .

إن غبطةً ظاهرة تُزاحِم فى نفسه كل مشاعر الحزن والفجيعة إذ رأى أباه يموت – حين يموت – لا صامتاً ، ولا مخذولاً . . بل خطيباً ، يلخص فى كلمات سواطع كل فضائل حياته التى عاشها فوق الأرض وبين الناس ، ويواصل فى إلحاح نبيل وقفته إلى جانب تلك الفضائل ، وإلى جانب المُمَثِّل الجديد والمجيد لها . . الداعى إلى الله بإذنه . . « محمد بن عبد الله » ! !

أجلْ . . فبقدر ما أحزن الابن فقد والده ، كانت غبطتُه إذ تلقَّى

فى لحظة الختام هذه ، أصدق عظات الحياة وأروعها :

عَظِّموا الكعبة . .

صِلُوا الرَّحِم . .

اتركوا البغى . .

أجيبوا الداعى . .

كونوا صادقين . .

عيشوا أمناء . .

وأولاً ، وأخيراً :

انصروا محمداً . .

فإنه الهادى إلى سواء السبيل . . ! !

* * *

مِنْ صُلْب هذا الوالد جاء « على » . .

ولقد كانت قريش كلها تنظر إلى « أبى طالب » نظرتها إلى زعيم .

الكل يحبه ، ويهابه ، ويحترمه ، لا لمكانته فى قريش فحسب . . بل قبل هذا وذاك ؛ لما يحمله من نفس كريمة ، وخصال عظيمة ، وشخصية عادلة فاضلة ، تبهَرُ الناس بقوتها واستقامتها ، وشموخِها . . !

وإنه ليكفينا فى التعرُّف إلى شخصية هذا البطل لماتٌ من مواقفه تجاه الإسلام ، وقريش . .

لقد وقع على كاهله دون أعمام النبى جميعاً ، ودون أهله وعشيرته كلهم ، عِبءُ مُناصرة الرسول ، ومقاومة قريش . .

وثبت الرجل ثباتاً باهراً أمام مناوراتٍ ومؤامراتٍ تهد الجبال ! !

ذلك أنه كان أوسع رجال قريش أُفقاً ، وأذكاهم قلباً ، وأوفرهم جسارة وعزماً .

* * *

فى الأيام الأولى لدعوة النبي ، رأى أبو طالب ولده – عليًّا – يصلى خفية وراء الرسول .

وكانت هذه أول مرة يعلم أن ابنه الصغير السن ، قد اتبع محمداً . .

وما اضطرب الطفل حين رأى أباه يبصره مُصلياً .

ولما أتمَّ صلاته ذهب تلقاء والده وقال له فى صراحة وثبات ليسا بطارئين عليه ! !

[يا أَبت . .

[لقد آمنتُ بالله ، وبرسوله ، وصدقتُ ما جاء به ، واتبعتهُ] .

فأجابه أبو طالب :

[أما إنَّه لا يدعوك إلا إلى خير ، فالزَمْه] .

ليس ذلك فحسب . . .

بل إنه رأى النبي يوماً يصلى ، وقد وقف « علىٌّ » إلى يمينه .

ولمح من بعيد ولده « جعفراً » فناداه ، حتى إذا اقترب منه قال له :

[صِلْ جناحَ ابن عمِّك]

[وَصلِّ عن يساره] ! ! !

سَعةُ أُفق ، وذكاء قلب يحملان صاحبهما على إفساح الطريق

للحقيقة الجديدة حتى تأخذ فرصتها وتُثْبِتَ صدقها وأحقيتها .

ولو أن إنساناً آخر غير « محمد » عليه السلام هو الذى جاء بهذه الدعوة ، ما تخلَّف أبو طالب عن نُصرته .

فهو – كما نراه فى أخباره وسيرته – من أولئك الأذكياء المنصفين الذين لا يتورطون فى حماقة تجميدِ الزمن والحجْر على المستقبل .

وهو – كما رأينا فى وصيته عند موتة – من المؤمنين بقوة الفضيلة والخير ولقد عاش حياته يناصر كل دعوة وكل داعية فى هذا السبيل .

* * *

وأبو طالب بعد هذا ، أعلمُ الناس برسول الله . .

فهو عمهُ ، وكافلهُ ، ومُربيه . .

إنه يعرفه إنساناً كاملاً . .

صادقاً ، لم يُعهد عليه كذب قط . .

أميناً ، لم تشب أمانته شائبة . .

طاهراً ، لم تَعْلَق به شُبهة . .

ولطالما رآه يتفجَّر شوقاً إلى رؤية الحقيقة . .

ولطالما رآه يضطرم همًّا وأسى على أهله وقومه الذين ألغَوْا عقولهم ووجودهم أمام حجارة مركومة زعموها آلهة وأرباباً . . ! !

فهل يتخلى عنه . . ؟ هو الذى لم يكن سيتخلى عن أى غريب آخر جاء يحمل رايته ، ، ويعلن دعوته ؟ !

لقد كان « أبو طالب » عظيماً بشخصيته ، وبمواهبه ، وبسجاياه . .

ولقد وقف إلى جانب الرسول ، والإسلام الناشئ – الموقف الذى

تمليه عليه رُجولته وعظمة نفسه .

* * *

لقد صمد لقريش ، وأحبط كل مكايدها ، حتى لم تجد آخر الأمر بدًّا من أن تلجأ إلى عمل تأباه تقاليد العرب وأخلاقهم .

وذلك حين يئست من ثني الرسول عن دعوته ، ومن ثني أبي طالب عن مناصرته ، فقرر زعماؤها مقاطعة بني هاشم وبني المطَّلب .

وفعلاً ، انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ،وأقاموا معه في شعْبِهِم . . ولبثوا داخل هذا الحصار الرهيب قرابة أعوام ثلاثة ، حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرءُوا به غوائل الجوع .

وأبو طالب كالطود شموخاً ورُسوخاً ، يرفض كل مساومة تحاولها قريش ، ويُسلط عليهم موهبته الشعرية فينْفَحُهم بالقصيد تِلوَ القصيد .

أفيقوا أفيقوا قبل أن يُحفرَ الثَّرى
ويصبح مَن لم يجْنِ ذنباً كذى الذنب
ولا تتبعوا أمر الوُشاة وتقطعوا
أوَاصِرَنا بعد المودة والقُرب
فلَسنا وربِّ البيت نُسلِم أحمداً
لِضرَّاء من عَضِّ الزمان ولا كَرْب
ولما تَبِنْ منا ومنكم سوالفٌ
وأَيدٍ أُتِرَّتْ بالقُساسِيَّةِ الشُّهْب

* * *

إن أبا طالب إذا آمن بشيء ، كان إيمانه قويًّا صُلباً . . نفس

الصلابة والقوة اللتين ورثهما عنه ولده « عليٌّ » بلى وبنوه أجمعون . .

ولقد آمن « أبو طالب » بحق الرسول فى أن يقول كلمته ، ويبلغ دعوته . . فإن كانت حقًّا ، فمن حقِّ الحق أن ينتصر ويسود . .

وإن كانت باطلا ، فإن الباطل سيذهب جُفاء . .

من أجل هذا قاوم قريشاً عندما رآهاتفرض الصمت على الرسول .

أجل . . إنه لا يقف مع « محمد » ابن أخيه . .

وإنما يقف مع « محمد » الداعى إلى الحق ، وإلى الخير . .

« محمد » الصادق والأمين . .

ولو شك « أبو طالب » فى صدق ابن أخيه ما ناصره ولا ظاهره .

فهو إنما يُناصر فيه الحق ، لا القرابة . . ! !

وليس أدلَّ على ذلك من موقفه يوم أنبأه الرسول عليه الصلاة والسلام بأن الله قد سلَّط الأَرَضةَ على الصحيفة التى كانت قريش قد سطرت فيها عهدها بمقاطعة بنى هاشم وبنى المطلب ، وعلّقتها فى جوف الكعبة .

أنبأه الرسول أن الله قد سلط عليها الأَرَضة ، فأكلتها ولم تبق منها إلا اسم الله . .

هنالك ذهب أبو طالب إلى قريش فى ناديهم وقال لهم :

[يا معشر قريش . .

[إن ابن أخى أخبرنى بكذا ، وكذا فهلُمَّ صحيفتكم ، فإن تكُ كما قال محمد فانتهوا عن قطيعتنا ، وانزلوا عما فيها . . وإن يكُ كاذباً . . دفعته إليكم] . . .

ورضى زعماء قريش بهذا . .

وقاموا إلى الكعبة ، وجاءوا بالصحيفة من مكانها فإذا الأمركما قال رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وسُقط فى أيديهم ، وخرج الناس من عهد المقاطعة ، وباءت المؤامرة بالهزيمة والفشل . .

إن أبا طالب هنا يحتكم إلى حق الصدق فى أن يُحمى . . لا إلى حق القرابة فى أن تُشَايَع . . ! !

فهويقول لقريش : إذا تبين صدق محمد فى هذه الواقعة التى يمكن التثبت منها فى يُسر ، فله عليكم الحُجّة . .

وإذا تبين كذبه ، فأنا لا أحمى الكاذبين . .

وحاشا رسولَ الله ألا يكون صادقاً . . ! !

ومن قبل هذا ، عندما ذهب وفد قريش إلى أبى طالب قائلين له :

[إن لك فينا سِنًّا ، وشرفاً ، ومنزلة . .

[وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تَنْهَهُ عنا . .

[وإنا لا نصبر على هذا ، من شَتْم آبائنا . وعيب آلهتنا ، وتسفيه أحلامنا . .

[فإما أن تكُفّه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك منا أحد الفريقين] .

حين قالوا له ذلك . .

وحين جاءه رد الرسول :

[لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمرَ
فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر حتى
يقضيَه الله ، أو أهلك دونه] .

ازداد الطود شموخاً ، والعزم مَضاء ، وراح البطل - أبو طالب - يلفح قريشاً بصلابته وإصراره ، ويقول :

ولقــــد عَلمتُ بأن دين محمــــد   من خير أديان البريّة دينــــا
والله ، لن يصلُوا إليك بِجَمعهم   حتى أُوسَّدَ فى التراب دفينــــا

مَرَّة أُخرى - هذا هو الرجل الذى من صُلْبه جاء « علىّ » ! !

* * *

كان يجلس ذات يوم فى سقيفة له ، عندما أقبل عليه الرسول حزيناً آسفاً . .

وتحرَّاهُ الأمر . فعلم منه أن قريشاً أَغرَت به سفيهاً من سفهائها فألقى عليه روثاً ودماً وهو ساجد فى الكعبة يناجى ربه، وخالِقَه . . ! !

فنهض من فوره ، حاملاً سيفه بيمينه ، متأبطاً ذراع النبى بيساره حتى إذا وقف على المتآمرين ، ورآهم يتململون حين بصروا به مقبلا ، صاح فيهم :

[والذى يُؤمن به محمد ، لئن قام
منكم أحد ، لأُعاجلَنَّه بسيفى] . .

وراح يمسح الروث والدم بيده عن رسول الله ثم يقذف بهم على وجوههم جميعاً . . وجوه أشراف قريش الذين تحولوا أمام البطل إلى جُرذان . . ! !

ولقد أدركت قريش آخر الأمر ، أنها لن تنال من الرسول منالاً وأبو طالب إلى جواره ، يذود عنه ويحميه . .

* * *

لقد أحب أبو طالب فى ابن أخيه كل الفضائل التى كان يعشقها ويقدسها ، والتى رأى الرسول يرفع لواءها فى ولاء منقطع النظير . .

ولقد عبَّر عن حُبه ذاك بإرادته الصُّلبة فى تلك المواقف التى رأينا طرفاً منها . . كما عبَّر عنها بموهبته الفنية فى شعره البليغ :

لقـد علموا أنَّ ابننا لا مُكذبٌ لدَينا ، ولا يُعنَى بقول الأباطل
حليمٌ ، رشيد ، عادل غير طائش يُوالى إلهاً ، ليس عنه بغافل
وأبيضُ ، يُستَسْقى الغمام بوجهه ثِمالُ اليتامى ، عصمةٌ للأرامل

* * *

ومات أبو طالب . .

مات ، وملءُ فؤاده ميلٌ عارم إلى الدين الجديد ، وحنانٌ مُفيضٌ ، على رسوله المجيد .

واشتدَّ أذى قريش للرسول . .

وذات يوم وقد اشتدت عليه وطأة المشركين وأذاهم ، وجَّه لعمه تحية يستحقها حين قال :

[ما نالت منى قريش شيئاً أكرهُه ،
حتى مات أبو طالب] ! !

ثم هز رأسه العظيم فى أسى وقال :

[يا عمّ . .
ما أسرعَ ما وجدتُ فقدَك] ! !

* * *

هل كان « عليٌّ » ابن هذا البطل فحسب . . ؟

لا . . بل كان حفيدَ بطل آخر ، عظيم أىٍّ عظيم ! !

ذلكم هو : عبد المطَّلب . .

وبوقفة سريعة نقفُها مع فضائل عبد المطلب ، وسجاياه العظيمة ، يتبين لنا أن « علياً» لم يرثْ عن أبيه فضائل طارئة . . بل ورث فضائل أصيلة وعريقة ، سارت مَسير النور عبر أصلاب نقيَّة شامخة . .

فمن يكون ذلك السيد الماجد – عبد المطلب . . ؟

إنه الرجل الذى بلغ فى قريش وفى العرب جميعاً منزلة لم يكدْ يبلغها أحد .

وعندما يزدحم الحجيج حول زمزم فى مواسم الحج كل عام ، فإن عليهم أن يذكروا بالخير والإجلال ، الرجل الذى حفرها وتفجَّرت على يديه البرَّتين مياهها .

ومَن عساهُ يكون ، غير عبد المطَّلب . . ؟

لقد استقبلت روحه الصافية ذات ليلة وهو نائم ، هاتفاً هتف به فى رؤيا حق يقول له :

– احفر طَيْبَة .

واستيقظ من نومه ، لا يدرى ما تعبير رؤياه .

بيد أن الهاتف زاره فى الليلة التالية ، وقال له :

– احفر بَرَّة .

واستيقظ كذلك دون أن يدرى ماذا يُراد منه ، وماذا يراد له . .

وفى الليلة الثالثة نودى مرة أخرى فى منامه :

– احفر زَمْزَم . .

– قال : وما زمزم . . ؟ ؟

أجابه الهاتف :

– لا تنزفُ أبداً ، ولا تُذمّ .

تسقى الحجيجَ الأعظم ! !

ودُلَّ على مكانها . .

ولم يكد يطلع النهار حتى اصطحب ابنه « الحارث » وذهبا حيث راحا يغوصان فى الأرض بمعاولهما ، فتفجرت مياه النبع المبارك الخالد الذى كانت الأقدار الرحيمة قد مَنحته إسماعيل وأمه وسط الصحراء اللاهبة فى الدهر البعيد ، ثم طمرته الصخور والرمال !

إن عبد المطلب ، أو « شيبة » كما كان اسمه الحقيقى ، لرجل فذّ ، من طراز باهر ، بقدر ما هو نادر . .

وهل يكون الجدُّ الأول لرسول الله . . ثم الجدُّ الأول لعلى بن أبى طالب إلا رجلاً تصنعه الأقدار على عينها . . ؟

لقد كان ذِكرهُ يملأ صحراء العرب من شمالها إلى جنوبها شذًى وعبيراً . .

ومن كثرة محامده دعاه الناس . . « شيبة الحمد » . .

وكان يصفونه بأن : (الرجل الذى يطعم الناس فى السهل ،

والوحوش فى الجبال) ! !

وكان غزير الحكمة ، عميق الإيمان .

عندما غزا « أبرهة » مكة ليهدم الكعبة . وجاء فى جيش لجب لا طاقة لقريش بمقاومته ، فزعت قريش إلى شيخها وزعيمها – عبد المطلب – تسأله الرأى . .

فأمرهم عبد المطلب – وقد أدرك عجز قومه عن مجابهة الجيش الزاحف – أن يحملوا نساءهم ، وأطفالهم ، ومتاعهم ، ويغادروا مكة إلى شغاف الجبال ، تاركين البلد الحرام « مدينة مفتوحة » يتولى رب البيت حراستها . .

أما إذا حاول الجيش المقتحم أن يتسوَّر الجبال وراءهم ليعتدى على أعراضهم ، فليسقطوا جميعاً صرعى قبل أن تمس أعراضهم بسوء . .

ونفس الموقف وقفه من أبرهة عندما طلب أن يتحدث إلى زعيم قريش ، فذهب إليه « عبد المطلب » .

وهناك ألقى على مسامعه كلمته المأثورة :

[أما الإبل ؛ فهى لى . . وأما البيت ، فله ربٌّ يحميه] .

* * *

لم يأخذ « شيبة الحمد » هذا الموقف إلا بدافع إيمانه الوثيق القوى بالله وبقدرته .

من أجل ذلك ، لا يكاد يرجع من لقائه لـ « أبرَهة » حتَى يتجه من فوره إلى البيت الحرام . .

وهناك يأخذ بحلقتى باب الكعبة ، ويمضى يناجى الله فى إيمان الواثق بنصره .

[لا هُمَّ إن المـرءَ يمنع رَحلَهُ ،
فامنعْ رِحالك] .

ولكن ، ماذا لو تركت الأقدار «أبرهة» يهدم البيت ، وأين يذهب عندئذ إيمان عبد المطلب بالله . . ؟

هنا يبزغ عمق إيمانه ، وأصالة حكمته ، وهو يستكمل مناجاة الله قائلاً :

[إن كنتُ تاركهمْ وكعبتنـا ، فأمْرٌ
ما بدا لك] ! ؟

أجل . . فحتى إذا وقع ما يخشاه عبد المطلب ، وما يُحاذره من أبرهة وجيشه ، وهدمهم بيت الله الحرام . .

حتى إن حدث ذلك ، فإن إيمان « عبد المطلب » بالله لن يَزِلَّ ولن يخْبو . .

وسيحدث ما يحدث إنفاذاً لحكمة يعلمها الله . . ! !

هذا إيمان رجل إلٰهى تموج الأرض من حوله بالوثنية — لا فى جزيرة العرب وحدها . . بل فى بلاد الحضارة نفسها — فى « فارس » و « الروم » فى حين يسيطر على وجدانه شعورٌ خفىٌّ بأن هناك إلهاً أسمى ، وأجلَّ ، وأعظم . .

إن إيمان « عبد المطلب » يبدو نقيًّا ، تقيًّا فى مناجاته تلك التى مرّت بنا الآن .

لقد كان يقبع حول الكعبة أكثر من ثلثمائة صنم ، لم يدعُها « عبد المطلب » لتحمى الكعبة . .

لم يُنادِ « هُبل » ولا « اللاّت » ولا « العُزَّى » !

ولم يناد شيئاً من تلك الأوثان والأصنام التى لا يفصلها عن الكعبة بُعدٌ أو مسافة . .

إنما نادى الله . . وضرع إلى الله . ولجأ إلى العلىِّ الأعلى الذى كان شعوره الكامن فى أعماقه يدله عليه . . ويشير به إليه . . فقال مناجياً له وضارعاً :

[لا هُمّ ، إن المـــرء يمنع رَحْله ،
فامنعْ رِحالك] ! !

* * *

ولقد وجد إيمان عبد المطلب مثُوبته العاجلة ، فى الضربة الماحقة التى وجهها القدر العظيم لأبرهة وجيشه . . إذ سلط الله عليهم أضعف جنده . . طيراً أبابيل ، حملت إليهم المنايا ، وخلَّفتهم صرعى وأحاديث !

كان عبد المطلب يُمْنَ قومه وبركتهم . .

وكأىٍّ من مرة حجبت السماء عنهم غيثها ، وكاد القحط يقتلهم فيذهبون إلى شيخهم « عبد المطلب » الذى يخرج بهم صفوفاً ضارعة خاشعة إلى قنن الجبال ، حيث يضرع إلى الله كى ينزل المطر ، مبتهلاً بهذه الكلمات :

[اللهم هؤلاء عبيـــدك ، وأبنـــاء
عبيدك ، وقد نزل بنـــا ما ترى ؛

فأذهبْ عنــا الجدب ، وأتِنــا بالمطر
والخصب] . . ! !

فلا يلبثون إلا قليلاً . . ثم تجيء الأمطار كريمة رحيمة ، تُنبت ، وتحيي ، وتُنعش . .

* * *

الحق أنه إيمان عجيب . . إيمان هذا الرجل الفريد فى عصر كانت الوثنية دينه وصلاته . . ! !

إن عبد المطلب ، ليرى الله فى كل نعمة يُؤتاها . وفى كل خطوة يخطوها . .

عندما بُشر بمولد حفيده « محمد بن عبد الله » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . . حمل الوليد فوق ذراعيه وصدره ، وذهب به مُسرعاً إلى الكعبة حيث صلى لله صلاة شكر وحمد . . وراح يقول :

الحمـــد لله الذى أعطانى — هذا الغلامَ الطيّبَ الأردان
قد ساد فى المهد على الغلمان — أُعيــذه بالله ذى الأركان
حتى أراه بالغ البُنيان

ولقد دلته شفافية رُوحه على ما سيكون لهذا الوليد من شأن عظيم . . فأحبه حبًّا ما أحبَّ مثله أحداً . . وراح يعامله فى طفولته معاملة صديق ! !

وفى كل مناسبة ، كان يأخذ يد ابنه « أبى طالب » ويضعها فى يد حفيده « محمد » عليه الصلاة والسلام ، ويقول لأبى طالب فى إحساسِ مَن يكاد يرى الغيب المقبل رَأىَ العين .

[يا أبا طالب . . .

[سيكون لابنى هذا شأن فاحفظْه ،

ولا تدَعْ مكروهاً يصل إليه] ! !

ولقد حفظ أبو طالب العهد ، ورعى ابنَ أخيه ، ووصية أبيه ، رعاية تليق برجولته ، وبأرومته ، وبعظمة سجاياه .

* * *

وحينما خلت الديار من الجدِّ ، ومن الأب ، كان « علىٌّ » الابن والحفيد . . ابن أبى طالب ، وحفيد عبد المطلب يحمل منهما ميراث السجايا الفاضلة ، والعظمة المفردة . .

كان يحمل منها نبالة الخُلق . ونبالة الدم معاً . .

فبنو هاشم فى ميزان المجتمع ، سادتُه ، وقادته وأشرافُه . .

و « بنو هاشم » فى ميزان القيم ، أجود الناس كفًّا . . وأوفاهم ذمة . . وأنداهم عطاء . . وأكثرهم فى سبيل الخير بلاء . . وأحماهم للذِّمار . . وأحفظهم للجار . .

وبكلمة واحدة : هم فى قومهم وزمانهم ، ضمير أولئك القوم ، وذلك الزمان . . !

* * *

ولعلنا الآن قادرون على أن نعرف ماذا أخذ الابن عن أبيه ، والحفيد عن جـــدِّه . . ؟

ماذا تلقى « علىٌّ » من أبى طالب ، ومن عبد المطلب . . ؟

ماذا أخذ عنهما ، وماذا ورث ؟

لقد أخذ الفضائل كلها ، وورث المكرمات جميعها .

ورث عنهما « مضـــاء البــذل » و « مضاء العزم » و « مضـاء العقيــدة » ! !

أجل . . هذه هى السِّمة المميِّزة لهذا الميراث الجليل . . المضاء الذى يجعل فضائل هؤلاء القوم مُهيأة دائماً للنجدة والعمل ! !

كل قُوى الخير فيهم مشحوذة ماضية ، لا تعرف الوهن ، ولا التردد ، ولا الاسترخاء .

وسوف نرى ذلك واضحاً أكثر ما يكون الوضوح فى « على » الابن والحفيد . . لا سيما بعد أن تدخل هذه الفضائل الموروثة فى مختبرات الدين القيِّم ، والإسلام الحنيف ، فتُخرج خَبَثَها النفيس ويزداد أَلقها الفريد . .

وثمة أمر آخر ، سنراه واضحاً فى حياة « على » ، كما هو واضح فى خصال جده عبد المطلب . . ذلكم هو التفويض الذى يكاد يكون مطلقاً . .

لقد رأينا عبد المطلب حينما نزل به وبقومه ما لا طاقة لهم به يُفوِّض الأمر إلى الله فى بساطة عجيبة ، بل قولوا فى مثل براءة الأطفال ! !

ذلك لأنه لم يكن تفويض العاجزين الواهنين ، بل تفويض مؤمنٍ بأن الله هناك . . وراء كل حركة وكل عمل . . وأن ما تعجز قوى الخير من البشر عن إنجازه ، يتولى هو أمره وحسابه . .

تفويضٌ حلو ، ورائع . . ورثه فتانا فيما وَرِث . .

ولسوف نرى « عليًّا » فى مُقبل حياته وأيامه حين تنزل به الشدائد

الثقال ، يفوض الأمر إلى ربه فى فنٍّ عظيم . .

وسنرى وراء هذا التفويض حين نلقاه إيمان الأبرار ، لا استسلام العجزة .

وسنراه وهو يفوض الأمر إلى عالم الغيب والشهادة لا تشغله نتائج الموقف وعواقبه .

ذلك أن ابن أبى طالب ، فى حياته ، وفى صراعه لم يكن يعنيه إحراز أى انتصار لشخصه ، أو غلبة لذاته . . إنما كان يعنيه ، ويأسرُ لُبَّه ، ويستغرق وعيه وجُهده – فوز المبادئ التى آمن بها وحمل أمام الله مسئوليتهـا . .

وعلى رأس هذه المبادئ كلها الإيمان بالله ، وحسن الاعتماد عليه .

* * *

لقد رأى ولاء أبيه لما كان يراه حقًّا . .

وورث ولاء جَـدِّه عبد المطلب ، ومن قبل جـده « هاشم » لما كانا يريانه حقًّا . .

لقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنهم حُماة العقيدة وحماة الفضائل ، وسَدَنَة الخير . .

وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون حقيقة الإله الذى إليه يلجأون ، وعليـه يتوكلون ، فإن ولاءهم لقـوته القاهرة وفضله الرحيم كـان على الدوام مشحوذًا . . فكيف بولاء « على » وقد عرف حقيقة الله واهتدى إليه . . ؟ !

ولكن : كيف عرف . . وكيف اهتدى . . ؟ ! تعالَوْا لنرى . .

* * *

أتبصرون هذه الدار البسيطة ، والجليلة . .

إن الفتى الذى نقفو أثره ، هناك . .

إنه مع ابن عمه . . محمد بن عبد الله رسول رب العالمين . .

ذلك أن الرسول كان قد استأذن عمه أبا طالب منذ عهد بعيد ، وقبل موته ببضع سنين كى يترك له علياًّ ، يعيش معه فى داره ودار خديجة زوجه ، فأذن له . .

وإنه الآن فى تلك الدار التى يرسم الوحى داخل جدرانها خارطة عالم جديد مقبل ، وبشرية جديدة وافدة . . !

يا له من فتى مُبارَكٍ ، محظوظ . .

إن وراثاته المجيدة تزدهر الآن بين يدى أستاذ قدير . . هو ابن عمه ، وواصِلُه بربه ، وهاديه إلى صراط مستقيم .

فإلى هذه الدار المباركة ، لنصحبَ « علياًّ » فى رحلة حياته المجيدة . .

إليها ، تعالوا نمضِ خاشعين . .

الفصل الثاني

الرَّبيبُ والسّابِق

[من كُنتُ مولاه ·
فعَليٌّ مولاه ·]
الرسول

ها نحن أولاء ، نقترب . .

ها نحن أولاء ، على الأبواب . .

ماذا . . ؟

ألا تسمعون . . ؟

إن رنيناً عذباً يجيء من داخل . .

إن قرآناً عجباً يُتلى . .

إن أهل الدار يُصلُّون .

تُرى مَن هناك ؟

لا أحد – طبعاً – سوى الرسول يَؤمُّ وراءه فى الصلاة ابن عمه « عليًّا » وزوجه « خديجة » وخادمه « زيد بن حارثة » . .

يا لجلالِ المشهد . .

ويا لروعة الآيات التى ينبعث من داخل الدار عبيرها الشهىُّ ، ورنينها القوىّ . .

فلنصْغِ فى خشوع وتقوى . .

بسم الله الرحمن الرحيم

* حٓمٓ
* تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . .
* إنَّ فِى السَّمَوٰاتِ وَالأَرْضِ ، لآياتٍ للمُؤْمِنِينَ . .
* وفِى خَلْقِكُمْ . .
وما يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ . .
آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .
* واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ . .
* وما أنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ ، فأحْيَا بِهِ الأرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا . وتَصْرِيفِ الرِّياحِ . .
آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . .
* تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحقِّ . فبِأىِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وآياتِهِ يُؤْمِنُونَ . . ؟ !
* وَيْلٌ لِكُلِّ أَفّاكٍ أَثِيمٍ . .
* يَسْمَعُ آياتِ اللهِ تُتلَى عَلَيْهِ . .

ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . .

* * *

لقد سكن الصوت . .
لعلهم الآن يركعون ، ويسجدون . . !
لعلهم يسبِّحون ، ويستغفرون ! !
لعلهم يتدَّبرون ، ويتأملون ! !
فلنبقَ مكاننا مُواصلين خشوعنا وإصغاءنا . .
إن الرنين العذب يعود . .
وها هو ذا يعلو فى جماله وجلاله ، فاستمعوا يا صِحاب . .

* * *

* ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ
الأَمْرِ فاتَّبِعْها . .
ولا تَتَّبِعْ أهْوَاءَ الَّذِين
لا يَعْلَمُونَ .
* إنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئاً . .
وإنَّ الظالِمِينَ بَعْضُهم أوْلِيَاءُ
بَعْضٍ . . واللهُ ولِىُّ المتَّقِينَ . .
* هـذا بَصائِرُ للنَّاسِ . .
وهُـدًى . .
ورحمةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . .

* أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أنْ نَجْعَلَهُمْ كالَّذِينَ آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات ؟ ؟ سَواءً مَحْيَاهُمْ ومَمَاتُهُم ؟ ؟ ساءَ ما يَحْكمُونَ ! !

* وَخلَقَ اللهُ السَّموٰاتِ والأرْضَ بالْحَقِّ . ولِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ . وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ .

* أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إلهَهُ هَواهُ . . وأضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ . . وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ . . وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً . . فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ ؟ ؟ أفَلاَ تَذَكَّرُونَ ؟ !

* وقالُوا : ما هِيَ إلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا . . نَمُوتُ ، ونَحْيا . . وما يُهْلِكُنا إلاَّ الدَّهْرُ . . وما لَهُم بِذٰلِكَ مِنْ علْمٍ . . إنْ هُمْ إلاَّ يَظُنُّونَ .

* وإذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنَا بَيِّنَاتٍ ، ما كان حُجَّتَهُمْ إلاَّ أنْ قالُوا ائتُوا بِآبائِنَا ، إنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ .

* قُلِ اللهُ يُحْيِيكُمْ . .
ثُمَّ يُمِيتُكُمْ . .
ثُمَّ يَجْمَعُكم إلىَ يَوْمِ القِيامَةِ
لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أكْثَر النَّاسِ
لا يَعْلَمُون .

هنا يعيش « علىٌّ » ويحيا . .

أجل ، هنا مُنْذُ كان « محمد عليه السلام » عابداً يبحث عن الحق ، ويتعبد فى غار حراء ، ويُقلِّب وجهه فى السماء . وكأنه على موعد يترقّبه ويتعجّله . .

وهو هنا يعيش بعد أن أوحِيَ إلى الرسول ودَعتْه السماء ليقول كلمتها ، ويبلغ رسالتها . .

وعندما بدأت أيام الرسالة الأولى . . بل عندما بدأت أولى ساعاتها ولحظاتها — كان هناك ثلاثة يلحظون التغير الهائل الذى أخذ يرسم سماه على حياة الرسول .

هم : خديجة — زوجته .

وعلى — ابن عمه .

وزيد — خادمه .

ولقد أسلموا بهذا الترتيب أيضاً .

سأله « على » وهو ابن عشر سنين لا غير :

— ماذا أراك تصنع . . ؟

وأجابه الرسول :

– إنى أصلى لله رب العالمين .

وسأل علىّ :

– ومن يكون رب العالمين . . ؟

وعلّمه الرسول وهداه :

– إنه إله واحد . . لا شريك له . . له الخَلْق . . وبيده الأمر . . يُحيى ويُميت . . وهو على كل شىء قدير . .

ولم يتردد الغلام المبارك ، فأسلم . . وكان أول المسلمين . . فى حين كانت خديجة رضى الله عنها أول المسلمات .

ومن ذلك اليوم ، وهو مع النبى لا يفارقه ، يصلى معه ، ويُصغى إليه ، ويراه وهو يتهيَّأ لِتَلقِّى الوحى . .

وكم من آية ، وآيات ، كان هو أول من يسمعها وهى لا تزال حديثة العهد بمنَزِّلها ومُوحيها .

وأخذ الذين اصطفتهم السماء لصحبة الرسول يُقبلون عليه مؤمنين :

أبو بكر الصديق . . فعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وابن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص . .

فأبو عبيدة ، وأبو سلمة ، والأرقم ، وأبناء مظعون ، وخبَّاب ، وسعيد ابن زيد ، وعمّار ، وعمير ، وابن مسعود الذين كُتِبَ لهم حظ السبق إلى الإسلام . .

وصارت « دار الأرقم » على الصَّفا مكان لقائهم ، يلتقون فيه خُفية وسِرًّا ، فيتلو عليهم الرسول ما يتنزل به الوحى على قلبه ، ويصلى بهم ، ويبارك إيمانهم .

* * *

لم يغب « على » عن دار الأرقم أبداً ، ولم يَفُته من مشاهدها الخالدة مشهد واحد . .

وتحت سقفها . . وكذلك تحت سقف الدار التى يسكنها النبى ، ويقيم علىّ معه فيها . طالما سمع آيات الله تُتلى . وطالما غَمرتْه أنوار النبوة تغسل حَوْبه وذنبه . .

ماذا . . ؟ !

أأقول تغسل حَوْبه وذنبه . . ؟ !

ولكن متى كان له حوْب أو ذنب . .

متى ، وهو الذى وُلد فى الإيمان ، والعبادة ، والهدى . . ؟

إنه وهو فى السادسة من عمره بدأ يعيش مع « محمد » الصادق الأمين ، يتأدب على يديه ، ويتأثر بطهره ، وعظمة نفسه ، وتُقَى ضميره وسلوكه . . وحين بلغ العاشرة ، كان الوحى قد أمر الرسول بالدعوة . . وكان هو سابق المسلمين ! !

وسارت حياته من ذلك اليوم إلى أن يجىء اليوم الذى سيلقى فيه ربه . . تطبيقاً كاملاً وأميناً لمنهج الرسول وتعاليم القرآن .

ألا بوركت هذه الحياة ! !

حياة لم تكن لها قط ، صَبْوَة ، ولا شهوة ، ولا هفوة ! !

حياة : وُلد صاحبها ، وتبعاتُ الرجال فوق كاهله ! !

حتى لهْوُ الأطفال ، لم يكن لحياة ابن أبى طالب فيه حظ ولا نصيب . .

فلا مزامير البادية ، ولا أغانى السُّمار ، شبع منها سمع الطفل ، ووُجْدان الشاب . .

لكأن المقادير كانت تدَّخر سمعه ووجدانه ، لكلمات أخرى ستغير وجه الأرض ، ووجه الحياة ! !

أجلْ . . لقد ادُّخِرَ سمع الفتى وقلبه ، ليتلقى بهما كما لم يتلقَّ أحدٌ مِثْله آياتِ الله العلى الكبير .

أرأيتم الآيات التى سمعناها من قبل . . ؟

فلنتصوّر « عليًّا » وهو يسمعها طازجة ، مشرقة ، متألقة ، حديثة العهد بربها ، يُرَتِّلها رسول رب العالمين . . ! !

ولكن : لا . . فلن نستطيع أن نتصور ، أو حتى نتخيَّل !

وحسبنا ونحن نطالع هذه الحياة أن نقدر على مُتابعة الكلمات التى تروى أنباءها وعجائبها . . ! !

* * *

فى نور هذه الآيات المنزَّلة ، والتى كان الوحى يجىء بها تِباعاً ، قضى « على بن أبى طالب » بواكير حياته النضرة ، يبهره نورها . . ويهزُّه هديرها . .

يسمع آية الجنَّة يتلوها الرسول ، فكأنما الغلام الرشيد يراها رَأىَ العين ، حتى ليكاد يبسط يمينه ليقطف من مباهجها وأعنابها !

ويسمع آية النار ، فيرتعد كالعصفور دهمه إعصار . . ولولا جلال الصلاة وحرمتها لولَّى هارباً من لفح النار الذى يكاد يُحسُّه ويراه ! !

أما إذا سمع آية تصف الله فى عظمته ، وجلاله ، أو آية تعاتب

الناس على إشراكهم بالله ما ليس لهم به علم ، وجحودهم فضلَه ونعمتَه . .
فعندئذ يتحول الغلام الراشد إلى ذَوْبِ تُقى وحياء !

لقد أُشْرب قلبُه جمال القرآن ، وجلاله ، وأسراره . . هذا الذى كان يشهد نزوله آية ، آية ؛ حتى صار جديراً بأن يقول وهو صادق :

[سَلُونى ، وسَلُونى ، وسَلُونى عن
كتاب الله ما شئتم . .
[فوَالله ما من آية من آياته إلا وأنا
أعلم أنزلَتْ فى ليل ، أم فى نهار] !

وحتى كان كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه .

[أَعطَى القرآن عزائِمه ، وعِلْمه ،
وعمَلَه . . فكان منه فى رياضٍ
مونقة وأعلامٍ بيِّنة] ! !

* * *

هذا ، هو : على بن أبى طالب .

هذا ، هو الذى نرجو ألا نكون مغالين إذ وَصفْناه بأنه : « رَبيبُ الوحى » ! !

فطوال السنوات الأولى لنزول الوحى ، كان فتانا هناك ، يشهد نُزوله ، ويسبق غيرَه فى تَلَقِّيه من رسول رب العالمين . ويُلقى سمعه ، وقلبه لأسراره وأنواره . .

ولطالما شهدته شعاب مكة ، وهو « ثانى اثنين » الرسول عليه السلام ، وعلى كرمّ الله وجهه ، يصليان معاً ، بعيداً عن أعين القُريشيين وأذاهُم . .

وهناك فى رحاب الصحراء الواسعة ، حيث لا يرتدُّ البصر أمام حدود أو سدود ، وحيث تتنزَّل على النفس أسرار الكون العظيم ، عاكسةً على الشعور جلاله ومَجْده ، كان « علىٌّ » يتلقى من فم الرسول كلمات القرآن وآياته – نفسُه مُرهفة ، وعزمه متهلِّل . . قلبه جميعٌ ، ورُوحُه حرّ . . وشخصيته بكل خصائصها الموروثة والمكتَسبة ، تتلقَّى تأثيراً لا يقاوم . . وتستسلم فى غبطة مُطْلقة لهذه الآيات التى آمن بها وَحْياً ، وديناً . وآمَنَ بقارئها وتالِيها نبيًّا ورسولاً . . ! !

من أجل هذا ، لا نعجب ، إذا رأينا « عليًّا » طوال حياته يعطى القرآن ولاءً مطلقاً . . ولا يقبل أَدْنى مَيْل عنه ، ولا يغفر أقلَّ تفريط فيه .

إنه « ربيب الوحى » والتلميذ الأول للقرآن . .

وإنه « سابق المسلمين » . .

ألم يسمع القرآن يتساءل فى هَدير ورَهبة :

[تِلْكَ آياتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحقِّ
فَبِأَىِّ حَـدِيثٍ بَعْـدَ اللهِ وآياتِهِ
يُؤْمِنُونَ] . .

بأىِّ حديث . . ؟ !

إن الفتى الأوَّاب لَيرتجف من هول التساؤل ، وجلالِ الخطاب ويجيب فى صيحة مكظومة :

– لا بحديث غير حديثك نؤمن ، يا ربَّ كل شىء ! !

ومن هذه الآية ، ومثلها معها من آيات القرآن العظيم ، أُشرب قلبُ « علىٍّ » ولاءً للقرآن ليس له نظير . !

ألم يسمع القرآن يحدد للرسول طريقه المستقيم فيقول :

[ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ] . .

إنه – ايضاً – من هذه الآية ، ومثلها من آيات القرآن وتعاليم السماء ، ليستمدُّ عزماً خارقاً على أن يسير فوق صراط الحق بخطى ثابتة راسخة أكيدة ، مُتخطِّياً أهواء الذين لا يعلمون فى استقامةِ قدِّيس ، وشُموخ مقْتـادِر . . . !

لك الله ، أبا الحسَن ! !

أكنتَ تدرى ، أىِّ معارك ضارية ستخوضها غداً ضد أهواء الذين لا يعلمون ؟

* * *

من ولائه الوثيق للقرآن ، وشهوده فجرَ الوحى وُضحاه كان « علىٌّ » ربيب الوحى . .

ومن ولائه الوثيق للإسلام ، وسبقِه إليه قبل غيره من رجال العالمين — كان « علىٌّ » سابق المسلمين . .

و « سابق المسلمين » — لقبٌ لا يستحقه « على » لمجرد سبقه إلى الإسلام .

فعلىٌّ ، هوالذى علَّم الناس فيما بعد ، أنه : ليس الطريق لمن سبَق . . بل لِمن صَدقَ . .

إنما يستحقه لأنه حاز كلتا الحسْنَيين : السَّبق . . والصِّدْق . .

وحين نتتبَّع مظاهر إسلامه نرى عجباً . .

وحين نستقبل شمائل إيمانه ، نستقبل رَوْضاتٍ يانعات نتأنق فيهن ، ويَشْمِلنُا عبيرها ، وطُهرها ، وتقاها !

* * *

والآن ، ما بالُكُم برجل اختاره الرسول من بين أصحابه جميعاً : ليكون فى يوم المؤاخاة أخاه . . ؟

كيف كانت أبعاد إيمانه وأعماقه ، حتى آثره الرسول بهذه المكرمة والمزيَّة . . ؟

عندما تَمَّت هجرة النبي والمسلمين إلى المدينة ، آخى الرسول بين المهاجرين والأنصار . . وجعل لكل أنْصاريّ أخاً من المهاجرين . . حتى إذا فرغ – عليه السلام – من دَمجْهم فى هذا الإخاء العظيم رنا بصرُه تلقاء شاب عالى الجبهة ، رَيان النفس ، مشرق الضمير . . وأشار الرسول إليه ، فأقْبل عليه . .

وبين الأبصار المشدودة إلى هذا المشهد الجليل ، أجلس النبى « علياً » إلى جواره ، وربت على كتفه ، وضمَّه إليه ، وهو يقول :

[. . وهذا أخى] ! !

لقد كان الصدِّيق « أبو بكر » ، وكان الفاروق « عمر » آنئذ هناك . . فهل من حقنا أن نتساءل : لماذا لم يختص الرسول أحدهما بهذا الذى احتصَّ به علياً . . ؟

إن تساؤلاً كهذا ، يفسد جلال المشهد ويُفوِّتُ علينا رُواءه .

والمسلم الذى ينشد الأدب مع رسول الله ، وأصحابه – يحنى هامته

إجلالاً لهذا الرعيل الأوّل والأسبق من أصحابه على حد سواء .

* * *

اختار « الرسول » إذن « علياًّ » ليكون فى هذه المؤاخاة أخاه . .

وكل شرف كان الإسلام يُضفيه على « ابن أبى طالب » — كان يزيد إحساسه بمسئولياته الدينية شحذاً ؛ وقوة . .

ولم يكن فى طول الدنيا وعرضها ما يراه ابن أبى طالب كُفؤاً لأن يكون مثوبةً على إسلامه وأجراً .

إن « الإمام » كرم الله وجهه كان يعرف تماماً قيمة الذى هداه ربه إليه . . وكان من الذين يؤمنون بأن الخير مثوبةُ نفسه . فالذى يُوَفق للخير وللحق يكون جاهلاً بقيمة الحق والخير ، إذا هو طلب من الدنيا مثوبةً وأجراً نظير فعله الخير وحَمْله راية الحق .

وهكذا حمل « على » إسلامه بين جنبيه ، وتحت ضلوعه ، وفى أعماق روحه ؛ ومضى يستصغر شأن الدنيا بكل فنونها وزينتها . .

وكلما تراءت له مباهجها صدَّها بعبارته المأثورة :

[يا دنيا ؛ إليكِ عَنِّى . . يا دنيا ، غُرِّى غيرى] .

* * *

و « على » فى إسلامه ، نموذج عظيم مكتمل الشكل والجوهر .

فإذا كان الإسلام عبادةً ، ونُسكاً . . جهاداً ، وبذلاً . . ترفعاً ، وزهداً . . فطنة ، وورعاً . . سيادة ، وتواضعاً . . قوة ، ورحمة . . عدالة وفضلاً . . استقامة ، وعلماً . . بساطة ، وتمكناً . . ولاء ، وفهماً . .

إذا كان الإسلام ذلك كله ، فإن « سابق المسلمين عليًّا كرم الله وجهه » كان أحد النماذج الباهرة والنادرة لهذا الإسلام . . ! !

ومَن شاء أن يتعرف إلى حياة الإمام وسلوكه ، فليقرأ كلماته . . ذلك أنه لم يكن بين مقاله وفعاله ، تفاوت أو تناقض .

أجل . . لم يكن بين ما يقول ، وما يفعل . بُعْدٌ ولا مسافة ، ولا فراغ . . !

فإذا حثَّ الناس على الزهد ، فلأنه أسبقهم إليه . .

وإذا حثَّهم على البذل ، فلأنه أقدرهم عليه . .

وإذا حثَّهم على طاعة – أية طاعة – فلأنه يُمارسها فى أعلى مستوياتها . .

صلّى الفجر يوماً بأصحابه فى الكوفة ، وهو أمير للمؤمنين ، فلما فرغ من صلاته جلس ساهماً حزيناً . . ولبث فى مكانه ومجلسه ، والناس من حوله يحترمون صَمته فلا يتحركون حتى طلعت الشمس ، واستقر شعاعها العريض على حائط المسجد من داخل . فنهض « الإمام على » وصلى ركعتين : ثم هزّ رأسه فى أسًى ، وقلب يده وقال :

[والله : لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فما أرى اليوم شيئاً يُشبههم . .

[لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سُجَّداً لله ، يتلون كتابه ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم . .

وإذا ذكروا الله مادُوا كما يَميدُ الشجر

في يوم الريح . . وهمَلَتْ أعينهم حتى
تَبتلَّ ثيابهم » . .

هذه صورة الماضى العظيم . .

صورة الأيام الجليلة الرائعة – أيام الوحى والرسالة – يعيش فيها « على العابد » دوماً وأبداً . . ولا يستطيع الزمن مهما توغِل فى البعد أيامه وأعوامه أن ينتزع « الإمام العابد » منها ، فهى مَنْسَكُه ومِحرابُه . . ! !

* * *

وإنه ليُحدِّث المسلمين عن الإسلام الذى آمن به ، وجعله كتاب حياته ، فيقول :

[تعلَّموا العلم ، تعرفوا به . . واعملوا ،
تكونوا من أهله . .

[ألاَ وإن الدنيا قد ارتحلتْ مُدْبرة .
وإن الآخرة قد أتت مُقبلة . . ولكل
واحدة منهما بنون .
فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا
من أبناء الدنيا .

[ألا وإن الزاهدين فى الدنيا قد
اتخذوا الأرض بساطاً ، والتراب
فراشاً ، والماء طيباً .

[ألا وإن مَن اشتاق إلى الآخرة ،
سلا عن الشهوات . .

ومن أشفق من النار ، رجع عن المحرمات . .
ومن طَلب الجنة ، سارع إلى الطاعات . .
ومن زهد فى الدنيا ، هانت عليه مصائبها .
ألا ، وإن لله عباداً – شُرورُهُم مأمونة . . وقلوبهم محزونة . . أنفسهم عفيفة . . وحوائجهم خفيفة . .
صبروا أياماً قليلة لِعُقْبَىَ راحة طويلة . .
إذا رأيتهم فى الليل ، رأيتهم صافِّين أقدامهم . . تجرى دموعهم على خدودهم . . يجأرون إلى الله فى فِكاك رقابهم . .
[وأَما نهارهم فَظِماء ، حُلَماء ، برَةٌ ، أتقياء ، كأنهم القدَاح . . ينظر إليهم الناظر فيقول : مرْضَى . وما بهم من مَرَض ، ولكنه الأمرُ العظيم . ! !]

* * *

الأمر العظيم . . ! !

ذلك هو شغله الشاغل . . ينام على هديره . . ويصحو على زئيره . . ! !

دين الله الذى حمل أمانته ، وقرأ كتابه . . ويوم الله ، الذى سيقف فيه بين يديه غداً ، لينظر جزاءه وحسابه . ! !

أوَ مِن أجل هذا ، لا ينام « على » ولا يستريح . . ؟

أجل . . .

من أجل هذا ، يقضى ليله ونهاره فى عبادة تُضْنى جسمه الأيِّد الوثيق .

ومن أجل هذا ، يدعُ الدنيا وراءه ظِهرياًّ ، فيأبى وهو خليفة للمسلمين ، أن ينزل قصر الإمارة بالكوفة . ويؤثر عليه الأرض الخلاء . والدار المهجورة . . ! !

ويُلحون عليه كى ينزل قصر الإمارة هذا . فيجيبهم :

[لا . .

قصر الخَبال لا أنزله أبداً] ! !

ومن أجل هذا ، يلبس الثوب الخشن ، فيسأله أصحابه أن يعطى نفسه ومنصبه بعض حقهما فيقول :

[هذا الثوب . يصرف عنى الزَّهْو . .

ويساعدنى على الخشوع فى صلاتى . .

وهو قدوة صالحة للناس ، كى لا

يسرفوا ويتبذَّخوا] . . ! !

ثم يتلو آية القرآن العظيم :

« تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجعَلُها لِلَّذِينَ
لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فى الأَرْضِ ولا فَسَاداً ،
والعَاقِبَةُ للمتقين » ! !

إنه لا يركَنُ إلى الدنيا لحظة من نهار.

إنها بالنسبة له ، قد أدْبَرَتْ وآذنتْ بوداع . . فلماذا إذن يعطيها ولاءه وبلاءه ؟

إن الآخرة عند الإمام . . هى الدار . . هى الأبد . . وما أهل الدنيا فى شتى العصور والدهور إلا سائرون فوق جسر . . كلما انتهى من عبوره قوم وجدوا أنفسهم أمام الأبدية حيث الجنة ، أو النار . ألا فلنُصْغ لحديثه :

[إن المضمار اليوم ، وغداً السِّباق . .
أَلا وإنكم فى أيام أمل ، من ورائه
أجل . .
فمن قصَّر فى أمله قبل حضور أجله
فقد خاب عمله . .
ألا فاعملوا لله فى الرَّغْبَة ، كما
تعملون له فى الرَّهبة . .
ألا وإنى لم أرَ كالجنة نام طالبها !
ولم أرَ كالنار نام هاربُها !
ألا وإنَّ مَن لم ينفعه الحق ، ضَرَّه
الباطل . .

ومن لم يَسْتقِمْ به الهُدى ، حادَ به
الضلال .
ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل
منها البرُّ والفاجر . .
وإن الآخرة وعدٌ صادق ، يحكُم فيها
مَلكٌ قادر . .
وإن أخوفَ ما أخافُ عليكم اتباع
الهوى وطول الأمل . .
فإن اتِّباعَ الهوى ، يَصُدُّ عن الحق . .
وإن طولَ الأمل ، ينْسى الآخرة] !

* * *

فلتأت الأحداث والأهوال عاصفةً ، تقتلع الجبال من حول الإمام ؛ فإنه لن يتبع الهوَى أبداً .

[فإن اتباع الهوى يصدُّ عن الحق] !

ولتبذُل الدنيا له كل نفسها وزينتها ، وبهجتها ، وإغرائها ، فإنه لن يربطها به أمل ولا رجاء .

[فإن طول الأمل ، يُنسى الآخرة] !

وهو – رضى الله عنه – لا يريد أن يتوه عن الحق ، ولا يريد أن ينسى الآخرة .

فالحق حياته . . والآخرة داره . .

عَلى أن زهد ابن أبى طالب فى الدنيا ، وعزوفَه عنها ليس زُهد

الهاربين من تبعات الوجود ومسئوليات الحياة .

إنما هو زهد يُشكِّله إسلامه ، الذى يجعل المسئولية العادلة ديناً ، ويجعل العمل الصالح الدائب عبادةً وقربى . .

وهنا نلتقى بـ« على » يصحح المعايير والموازين إذْ لا يكاد يسمع رجلاً يذم الدنيا مَذمَّة العاجز المتواكِل حتى يقول :

[الدنيا دارُ صِدْق ، لمن صَدَقَها
ودارُ نجاةٍ ، لمن فَهِمَ عنها ، ودار غِنًى
وزادٍ ، لمن تزوَّدَ منها .
[مَهبطُ وحى الله . .
ومَسجد أنبيائه . .
ومَتْجَرُ أوليائه . .
ربَحوا فيها الرحمة ، واكْتَسبوا فيها
الجنة] . .

أجل . . هذه هى دنيا المسلم ، كما يفهمها ربيب الوحْى ، وسابق المسلمين . .

دار عمل ، لا لهو . . يكدح فيها الإنسان لينشئ لنفسه مصيراً سعيداً يومَ يقوم الناس لرب العالمين .

وهى دار صدق ، لمن عاش فيها صادقاً مع مسئولياته وتبعاته . .
ودار نجاة ، لمن سار فيها على دَرب النجاة . .

* * *

وبهذا الفهم السديد للدنيا ، ربحهَا « على » وربَح بها مصيره وأُخْرَاه . .

فهى بالنسبة له ، لم تكن دار لعب ولهو أبداً . .

مُنذ طفولته الباكرة ، حمل الإسلام فى قلبه . وحمل معه كل أعباء الرجال .

ولقد قطع حياته وقضى أيامه على الأرض فى كفاح موصول ، ونضال لم يعرف الراحة يوماً . . ! !

وعاش كما وصفه الرسول عليه السلام :

[مُخشَوشِنٌ فى سبيلِ الله]

مَقَتَ الترف من كل نفسه ، ونأى عنه بكل قوته وعزمه .

ذلك أنه فهم الإسلام وعاشَه ، وتعلم منه أن الترف مَشْغَلَةُ الفارغين العاطلين .

والإنسان الذى يعيش مع مسؤوليات كبار كتلك التى يفرضها الإسلام الحق على أبنائه الحقيقيين وأهله إنما يكون حظه من الصدق والتوفيق مضاهياً حظه من البساطة والتخشن .

وهكذا كان الإمام . .

وهكذا أراد للناس أن يكونوا . .

عندما قدم مكة من اليمن ورسول الله يومئذ يحج بها حِجَّة الوداع ، تعجَّل هو إلى لقاء النبي تاركاً جنوده الذين عادوا معه على مشارف مكة بعد أن أمَّرَ عليهم أحدهم .

وبدا لهذا الأمير المستخلف أن يلبس الجند حُللاً زاهية من تلك التى عادوا بها من اليمن ، حتى يدخلوا مكة وهم فى زينتهم يسر منظرهم الأعين . وأمرَهم ، فأخرجوا من أوعيتهم حُللاً جديدة ارتدوها . واستأنفوا سيرهم إلى مكة .

وعاد « على » بعد لقاء الرسول ، ليصحب جنده القادمين . .

وعلى أبواب مكة رآهم مقبلين فى حُلَلِهم الزاهية .

وأسرع نحوهم ، وسأل أميرهم : (ويْلكَ . . ما هذا) ؟

قال : لقد كسوتُ الجند ليتجمَّلوا إذا قدموا على إخوانهم فى مكة . .

وصاح به « على » :

— ويلك . . انزع قبل أن تنتهى بهم إلى رسول الله .

فخلعوا حُللهم جميعاً . وكظموا فى أنفسهم مرارة ما صنع بهم « علىّ » الورع ، الزاهد ، الأوّاب . .

ولما دخلوا مكة ، ولقوا الرسول ، شكا إليه بعضهم علياً ، وقصوا عليه نبأه معهم .

فاستقبل الرسول القوم وقال :

[أَيها الناس . .
لا تشكُوا علياًّ . .
فَوَاللهِ ، إنه لأخْشَنُ فى سبيل الله
من أَن يُشْكَى] ! !

* * *

وهو بإسلامه وفى إسلامه لا يتغير — طفلاً وشابًّا ، وشيخاً . . جنديًّا ، وقائداً وخليفة للمسلمين . .

إنَ تقوى الله تأخذ عليه لُبَّه . . وهو لا يعامل الناس بذكائه ، ولا بحسبه ونسبه . بل بإخلاصه وتقواه . .

ثم هو لا يريد منهم ، بل ولا يقبل منهم أن يعاملوه بغير الصدق والتقوى .

من أجل هذا سنراه حين يقع الصدام بينه وبين معاوية يؤثر الهزيمة مع الإخلاص والتقوى ، على انتصار يتحقق بالمكر والمراوغة .

ويقول له ابن عمه « عبد الله بن عباس » وهو الصالح الورع خادِعْهُم . فإن الحرب خُدعة) فيجيبه الإمام الطاهر :

[لا والله . .

لا أبيع ديني بدنياهم أبداً] ! !

مُسلم عظيم . . يُفَجِّر الدنيا من حَواليه ذِمَّة ، واستقامة ، وطُهراً . .

* * *

وكذلك نراه وهو يخطب أصحابه فى أول جمعة له بالكوفة ، وهو أمير المؤمنين ، لا يخطب خطبة خليفة ولا أمير ولا حاكم . .

لا يصدر قرارات ، ولا يرسم سياسة . . على كثرة ما كانت الظروف تتطلب من قرارات ، وسياسة . . بل لا يجعل خطابه الأول هذا استجابةً لحماس أصحابه وشدِّ زِنادِ الحميَّة فى أنفسهم استعداداً للمعركة التى سيخوضونها مع جيش الشام المقاتل ، المدرَّب ، الصعب المراس .

لا شيء من ذلك كله يُضمِّنه الخليفة والإمام خطابه .

إنما هى الدعوة الخالصة لتقوى الله وحسن عبادته وطاعته :

اسمعوا . .

[. . أُوصيكم عبادَ الله بتقوى الله ؛
فإن تقوى الله خير ما تواصَى به
عباده ، وأَقرب الأعمال لرضوانه ،
وأَفضلهُا فى عواقب الأمور عنده .

وبتقوى الله أُمِرتْم ، وللإحسان
خُلقْتم . .
[فاحذروا من الله ما حذّركم من
نفسه ، فإنه حذَّر بأساً شديداً .
« واخْشَوا الله خشيةً ليست بتعذير
« واعملوا من غير رياء ولا سُمعة ،
فإن مَنْ عمل لغير الله وكَلَهُ الله إلى
ما عمل ومَن عَمِل مخلصاً له تولاه
الله ، وأعطاه فضل نيته . . وأشفِقُوا
من عذاب الله ، فإنه لم يخلقكم عبثاً
ولم يترك شيئاً من أمركم سُدى « قد
سَمّى آثاركم ، وعلِم أسراركم وأحصى
أعمالكم ، وكتب آجالكم فلا تغرُنَّكم
الدنيا ، فإنها غـرَّارةٌ لأهلها ، والمغرور
من اغترَّ بها .
وإن الآخرة لهى دار القرار] .

أهذا خطاب رئيس دولة . . ؟

كلا . . إنما هو خطابُ نِاسك . . ! !

خطاب مسلم ومؤمن وجَّه وجْهه وقلْبه وحياته للذى فطَر السماوات والأرض ، لا يعنيه إلا أن يحيا فى مرضاته تقياًّ ، وأن يحيا الذين من حوله أتقياء ، أنقياء .

* * *

كذلك نراه ونرى إسلامه الوثيق حين لم يعد له بُدٌّ من لقاء معاوية فى معركة « صفِّين » يستقبل جيشه ليلة المعركة خطيباً ، فلا يَعِدُهم ولا يُمَنِّيهم . ولا يرفع أمامهم مباهج الدنيا ونعيمها ، ثمناً للنصر إذا هم ظفروا به . .

إنما يحدِّثهم حديثاً آخر يختلف عن كل الأحاديث التى تتطلبها أمثال هذه المناسبة .

انظروا . .

[. . ألاَ إنكم مُلاقو القوم غداً . .
فإطيلوا الليلة قيامكم وصلاتكم
وأكثروا تلاوَة القرآن ، وسَلوا الله
الصبر والعفو والعافية] .

فى أوقات السلم ، وفى أوقات الحرب . .

فوق ثَبَج النصر ، وتحت وقع الهزيمة . . فى سرَّائِه ، وفى ضرائه لا يستولى على تفكيره ، وعلى ضميره ، وعلى شعوره سوى تقوى الله سبحانه . !

وحتى وهو يكتب إلى عمرو بن العاص الذى انحاز إلى صف معاوية ، وبات يشكِّلُ خطراً حقيقيّاً على جبهة الإمام ، لا نلتقى بالإمام يُمَنِّى عَمراً بدنيا ، ولا يستميله إلى هوى – نفس السلاح الذى كان « معاوية » يكسب به الأنصار . . بل نبصره يصدع عَمراً بالحق فى غير مساومَة ، ولا مُجامَلة .

إنه يناشده تقوى الله لا غير . . . هذه التقوى التى تجرى من

ابن أبى طالب مَجْرَى الدم ، فيقول له فى كتابه إليه :

[مِن عبد الله « على » أمير المؤمنين
إلى عمرو بن العاص . . أما بعد ،
فإن الدنيا مَشْغَلَةٌ عن غيرها . . وصاحبُها
مقبورٌ فيها ومنهومٌ عليها . . لم يُصِب
منها شيئا قط ، إلا فتَحَتْ له حرصاً ،
وإلاّ أدْخَلَتْ عليه مَؤونة تزيده رغبة
فيها . . . ولن يستغنى صاحبها بما ناله
عما لم يَبْلُغْه ، ومن وراء ذلك فِراقُ
ما جَمع والسعيد من وُعِظَ بغيره ، فلا
تُحْبطْ أجركَ أبا عبد الله ، ولا تُجارينَّ
معاوية فى باطله ، فإن معاوية غمط
الناس ، وسَفِه الحق] !

* * *

إنه يرفض أن تحدد علاقات الناس به ، أو علاقاته بهم منفعة أو غرض .

حتى فى أحرج ساعات حياته ، يُمْعن فى الرفض وفى الاستغناء .

إنه يؤمن بأن « الحق مقدس » وأنه أَجَلُّ من كل ثمن .

ولا شيء على وجه الأرض يمثل الحق فى يقينه مثلما يمثله الإسلام .

من أجل ذلك نَذر حياته لقضية الإسلام منذ عمره الباكر .

وعاش عمره المسلم يتنفَّس النقاء ، والصدق ، والاستقامة .

ليس فى حياته كلها وقفة واحدة مع المساومة ، أو المُداجاة ، أو الالتواء . .

ولعله لو شاء لكان داهيةً لا يشقُّ له غبار . . فَحِدَّةُ ذكائه ، واتقاد بصيرته يعطيانه من الدهاء ما يريد .

لكنه تخلَّى عن كل مواهب الرجل « الداهية » وأحَلَّ مكانها كل مواهب الرجل « الوَرِع » . . ! !

إن فهمه لحقيقة الإسلام . وإن ولاءه الوثيق له . . قد حمَّلا حياته من الأعباء فوق ما تُطيق . .

ولقد كان بعض جهاده وبلائه كفيلاً بأن يبوئه مكانه العالى بين الأخيار الصادقين .

ولكن الرجل الذى وصفه الرسول بأنه « مُخْشوْشِنٌ فى سبيل الله » قد أخذ نفسه بعزائم الأمور ، وناط قدرته وطاقته بالمستحيل ، ونذر للإسلام حياة استقلها ، فراح يُحملها أعباء مائة حياة . . ! !

* * *

ومع أيامه المجيدة التى عاشها فى دنيا الناس هذه ، حقق الإسلام فيه معجزة الصياغة . . تلك المعجزة المتمثلة فى قدرة هذا الدين على صياغة العظمة الإنسانية فى أحسن تقويم ! !

إن ابن أبى طالب فى كل مجالات حياته ، لواحد من أولئك الذين تجلى فيهم إعجاز الإسلام ؛ فلنْواصِل سَيرنا معه ؛ لنرى كيف تكون العظمة الإنسانية . . وكيف يكون العظماء ! !

الفصل الثالث

البَطلُ والرّجُل

[لأعطِينّ الراية غداً . . .]

الرسول

ذات يوم ، والرسول بالمدينة ، نزل عليه الوحى بآية جديدة من القرآن ، وراح الرسول يتلوها على أصحابه وهم منصتون .

[« وَمَا مُحمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ . أَفَئِنْ مَّاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعْقابِكُم ؟ ؟ ومَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً ، وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِين »] .

وأحدثت الآية فى أفئدة الصحابة ردَّ فعل قوياً ، وظن بعضهم أنها تنعى إليهم نبيهم عليه الصلاة والسلام .

وصاح « على بن أبى طالب » :

[والله لا ننقلب على أعقابنا بعد أن هدانا الله .

[وَلئن مات أو قُتِل ، لأقَاتِلنَّ على

ما قاتل عليه حتى أموت » . . ! !

وطوال عمر « على » فى حياة الرسول وبعد وفاته ، وهذه الآية لا تبارح ذاكرته وإنها لتلحُّ على وجُدانه إلحاحاً دائباً وعجيباً . . ! !

فهو دائماً يذكرها فيتلوها ، ويُتْبع تلاوته لها بكلماته التى سمعناها الآن :

[والله ، لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ
هدانا الله .
« وَلئنْ مات أو قُتل ، لأقاتلن على ما
قاتل عليه حتى أموت] . .

* * *

ولكن لماذا اختار القتال سبيلاً للتعبير عن ولائه للدين . وإصراره على متابعة طريق الرسول ؟

لماذا لم يقل : (ولئن مات أو قتل لأواصلن السير على نهجه ، والاهتداء بسنتِه وهَدْيه) ؟

إن طبيعة « المقاتل » تحتلُّ كل ذرَّة فى كيانه ، فإذا أعطى العهد على مواصلة السير تحت الراية التى يرفعها الرسول بيمينه ، فإنه يصوغ عهده من الكلمات التى تتسق مع طبيعته وتعبر عنها فى أمانة وصدق .

وأى كلمة تعبر عن طبيعة « المقاتل » سوى كلمة « سأقاتل » ؟

صحيح أن الآية نزلت فى معـركة دائرة ، وقتال مشبوب — فى غزوة أحد أو بعدها ، والمشركون يومئذ يُرجفون بأن الرسول قتل . . فنزلت الآية تسفّه أحلامهم ، وتشد عزم المسلمين ، وتخبرهم بأنه حتى لو مات الرسول

أو استشهد ؛ فإن رايته لن تسقط ، ودينه لن يتقهقر ،.وجنده لن يضعوا السلاح ! !

فلئن كانت طبيعة المناسبة ، تجعل الرَّد على تساؤل الآية : سنقاتل . .

فإن « طبيعة المقاتل » هى التى جعلت كلمة « سأقاتل » شعار حياة بأسرها ، وليست شعار مناسبة بذاتها .

وهكذا رأينا « الإمام » طوال حياته المديدة والمجيدة ، لا يفتأ يذكر الآية الكريمة فيتلوها ، ثم يُعقب عليها بنشيده ذاك .

[. . . ولئنْ مَاتَ أو قُتل لأقاتلن على
ما قاتل عليه حتى أموت] ! !.!

* * *

قلنا إن « علياًّ » يحمل بين جنبيه « طبيعة المقاتل » وسجاياه .

فهل هذه منقبة توضع فى ميزان فضائله ، ومزاياه . . ؟

وبتعبير آخر : هل وجود طبيعة المقاتل فى إنسان أمر يشرّف ذلك الإنسان . . ؟ ؟

أما بالنسبة لابن أبى طالب ، فنَعم . .

إن كون طبيعة المقاتل فى أعماقه ؛ لِمَّا يزيده شرفاً ؛ ورفعة ، وكمالاً .

ذلك أن « طبيعة المقاتل » فيه قد بلغت من الاستقامة ، ومن العدالة ؛ ومن الشرف ؛ المدى الذى أفاءه عليها القرآن ؛ والرسول والإسلام .

فهى – عند الإمام – لا تمثل عدواناً . . ولا تشكل بهتاناً . . ولا تنطلق وقوداً لأغراضٍ دنيا ، وأطماع نفس . .

وهى بهذا ، ولهذا ، تجاوز نفسها إلى أعلى مستويات البطولة .

كما أن « البطولة » عنده وظيفة تحمل أسمى تبعات الرجولة .

و « الرجولة » عنده ليست اندفاعاً عَرَمَراً تزجيه طاقاته الجبارة إنما هى « التزام » يكاد يكون مُطلقاً لمنهج الرسول الذى آمن به . والدين الذى حمل رايته .

وهكذا نرى « البطل » و « الرجل » و « المسلم » يلتقون فى شخصية « الإمام على » أصدق لقاء .

أجَلْ . . لم ينفصم البطل ، عن الرجل ، عن المسلم ، فى حياة « على » أبداً . .

فإذا رأيناه يبارز خصماً مثلاً ، فليس البطل المتمكّن هو وحده الذى يبارز . . بل إن رجولة الرجل ؛ وورع المسلم هما اللذان يرسمان للبطل أسلوب المبارزة وآدابها . . ! !

انظروا . .

فى غزوة أُحد . يخرج من صفوف المشركين أَحد مُبارزيهم الأشداء هو : أَبو سعد بن أبى طلحة ، وينادى « علياً » ليبارزه . .

ويخرج « على » إليه ويتلاقيان فى مبارزة ضارية حامية . .

ويتمكن منه سيف « على » بضربة تطرحه أَرضاً . وهو يتلوى من الألم .

وبينما « على » يتهيأ ليجهز عليه بضربة قاضية ينحسر جلباب الرجل فتنكشف عورته . فيغمض « على » عينيه ، ويغضُّ بَصره ويثنى إليه سيفه ؛ ويعود إلى مكانه فى الصف . .

ويسأله المسلمون : لماذا لم تجهز عليه . . ؟

ويجيبهم :

[لقد استقبلني بعورته ؛ فعطفَتْني عنه الرّحِم) ! ! !

إن شرف المقاتل خُلقٌ لا ينساه « على » أمام النصر ، وأمجاد الظفر .

ولقد عُرف عنه ذلك دائماً ، فراح أعداؤه يلمسون منه هذا الوتَر كلما رأَوا المنايا تهوى عليهم من سيفه الوثيق ! !

* * *

إن الأبطال الأصلاء العظماء ، لا ينشدون النصر – مجرد النصر .

إنما هم ينشدون النصر عفاً ، شريفاً ، عادلاً . . فإذا لم يأتهم النصر مُوَشًّى بهذه الفضائل ، فلا خفقت راياته ، ولا دقت طبوله ! !

وسنرى ونحن نتتبع مشاهد البطولة فى حياة الإمام ، كيف كان حرصه الشديد على « شرف المقاتل » آثر وأَبقى من كل غلبة ومن كل انتظار .

ومن المفارقات العجيبة لشخصيته ، أن « براعة المقاتل » فيه ، كانت تزلزل خصومه خوفاً وهَلعاً . . فى حين « شرف المقاتل » فيه ، كان يملأ نفوسهم طمأنينة وأَمناً . . ! !

أَجل – لطالما تحولت نقمته على أَعدائه إلى رحمة بهم بسبب إيمانه الحق بأن القتال الشريف ، النبيل ، العادل ، هو وحده سبيل الرجال ، إذا اضطرُّوا لقتال . .

* * *

بعد أن تحقق له النصر فى موقعة الجمل ، وقبل أن تبدأ موقعة

« صِفِّين » وكان لا يزال يرجو أن يفيء معاوية إلى الحق ؛ على الرغم من كل الشواهد التى كانت تنبئ بإصراره على موقفه وإعداده العريض للحرب والقتال . . يومئذ علم « الإمام » أن اثنين من كبار أنصاره يجهران بشتم معاوية ، ولعن أهل الشام هما : حُجر بن عدىّ وعمر بن الحمق ، فأرسل إليهما آمراً أن يكفا عن هذا الشتم وهذا اللّعن . . فقدما عليه ، وسألاه :

– يا أمير المؤمنين ؛ أَلسنا على الحق ؛ وهم على الباطل . . ؟

أَجابهم الإمام :

– بلى ، وربِّ الكعبة .

قالوا :

فَلم تمنعنا من شتمهم وَلعنهم . . ؟

قال الإمام :

[كَرهتُ لكم أن تكونوا شتَّامين لعَّانين . .

[ولكن قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا ودماءهم ، وأَصْلِحْ ذاتَ بَيْننا وبَينهم ، وأهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحقَّ من جَهله ، ويرعوى عن الغَىِّ من لجَّ به] . . ! !

إنه « شرف المقاتل » أيضاً . .

وإنها « البطولة » التى تُزجيها « الرجولة » .

و « الرجولة » التى صاغها الإسلام فى أحسن تقويم .

* * *

ولكن ، لماذا عَجِلْنا ، وتخطينا الزمن ، ورُحنا ننشد الأمثلة على بطولة الإمام من أُخريات أيامه . . ؟

ألا يَحسن بنا أن نستشرف هذه البطولة فى بداياتها الرائعة . . ؟

بلى . . فلنرجع مع الزمن إلى وراء . حيث الرسول فى « مكة » يتهيأ للهجرة إلى المدينة التى سبقه إليها أصحابه .

إن خُطَّة الهجرة كما رسمها الرسول ، كانت تتطلب أن يأخذ مكانه فى البيت رجل تَشغلُ حركتهُ داخل الدار أنظار المحاصرين لها من مشركى قريش ، وتخدعهم بعض الوقت عن مَخرَج الرسول عليه السلام ، حتى يكون وصاحبه أبو بكر قد جاوزا منطقة الخطر ، وخلفا وراءهما من متاهات الصحراء مسافةً تتشتَّت فيها مطاردة قريش إذا هى خرجت فى طلبهما . .

ولكن : ما مصير هذا الذى سيخلفُ الرسولَ فى داره ، ويخدع قريشاً كلها عن مَخرجه . . ؟

ما مصيره حين تكتشف قريش الحيلة ، وترى كَيدَها الذى عبّأت فيه كل قواها ، يرتد ، لا هزيمة ماحقه فحسب . . بل وسخريةً .

تُضحكُ منها وِلْدانها ، وخزياً يجثم فوق جبينها . . ؟

إن مصيره مفروغ منه . .

إنه القتل ، إذا لم تجد قريش ما هو أشد من القتل تشفياً وفتْكاً ! !

والحق أنها ستكون نهايةً مُوحشة . فالرجل الذى سيكتب عليه أن يحمل هذه التضحية ، لن يُقتل فحسب .. بل هو سيُقتل فى بلد مُوحش ، قد خلا من كل أصحابه الذين كانوا بالأمس يملأون فجاجه دَوِّياً بالقرآن كدَوِىِّ النحل .

فى هذا البلد الموحش سيُقتل وحيداً .. دون أن يجد من إخوانه من يُشجعه ولو من بعيد بنظرة تثبيت .. أو يودِّعه – ولو من بعيد أيضاً – بنظرة عطف ومحبة .. أو يتسلَّل فى جنح الظلام إلى قبره فيقف عليه مسلماً .. ! !

لا شىء من ذلك سيكون ..

ولا شىء من ذلك سيخفف من وَقع النهاية التى ستختارها قريش لِمن يمثل دور الرسول عليها حتى يخدعها عنه ، وحتى يردَّ كيدها العاتى تراباً فى تُراب ! !

فمِن أىِّ طراز ، سيكون هذا الفدائى العظيم !

ومن أىِّ ناحية ، سيجئ البطل .. ؟ !

إنه من بيت النبوة يجىء .

إنه سليل بنى هاشم .. وتلميذ محمد ..

إنه ربيب الوحى ، وسابق المسلمين ..

إنه « علىٌّ » يفاجئ قريشاً .. فَليَسُؤْ على يديه صباحُها .. كما ساء بخروج النبىّ مَمْساها ! ! !

* * *

على أنّ مهمة « على » رضى الله عنه ، لم تكن مقصورة على المبيت

مكان الرسول والمكر بقريش حتى يغادر الرسول مكة . . بل كان لها جانب آخر يتطلب نفس القدر من الفدائية والبذل والتضحية . . ذلك هو قيامه بردِّ الأمانات والودائع التى كان الرسول يحتفظ بها لذويها من أهل مكة .

لقد تلقَّى « على » من الرسول كل هذه الودائع وتلقى منه أسماء أصحابها . . وكان عليه أن يذهب إليهم داراً داراً . . وفرداً فرداً . . ويعطى كل إنسان أمانته ، دون أن ينيلَ قريشاً منه فرصةً تحولُ بينه وبين إنجاز مهمته كلها . .

ولقد قام البطل والرجل بالمهمة على خير وجه ، وحفظه الله ورعاه وصدق وعد الرسول له حين قال وهو يودِّعه :

[لن يَخْلصُ إليك شيء تكرهه منهم]

وبعد أيام ثلاثة ، قضاها الفتى الوثيق بمكة ، يرد الأمانات إلى ذويها ، ركب الصحراء مهاجراً إلى الله ورسوله . .

وحَده ، خرج مجتازاً نفس الطريق الذى خرجت عليه قوات قريش تطارد الرسول والصدِّيق ، وتطلبهما بكل جهد وثمن . .

وحدَه ، خرج « على » فى رباطة جأش تجلُّ عن النظير . . وفى إيمان مُطلق جعل عزمه يتألق مضاءً وتهلُّلاً . ! !

وبعد أيام وليال ، كان هناك فى « قباء » ينزل مع « الرسول » فى نفس الدار التى أُعدت له عليه السلام . دار كلثوم بن هِدم ، أخو بنى عمرو بن عوف .

وبعد أيام ، ينتقل مع الرسول إلى المدينة . . دار الهجرة . . وعاصمة العالم الجديد الذى جاء « محمد » يُنشئه ويبنيه على دعائم الإيمان ،

والحق ، والعدل ، والرحمة والسلام .

* * *

وتجىء « غزوة بدر » .

ويواجه الإسلام الوثنية فى أول لقاء مُسلَّح يَنْشِبُ بينهما .

ويُظهر على بن أبى طالب ، وعمه حمزة رضى الله عنهما من المقدرة والجلَد والبطولة ما يبهر الألباب . .

ثم تجىء « غزوة أُحد » حيث حشدت قريش كل بأسها وقوتها وخرجت لتثأر لقتلاها فى يوم بدر ، وتنضو عن نفسها عار الهزيمة الماحقة التى أصابتها ذلك اليوم المشهود . . ويملأ « على » أرض المعركة ببطولته وبضحاياه ويسقط اللواء من يد « مصعب بن عمير » .

يسقط بعد أن يبدى بطولة خارقة (١) .

ويدعو الرسول – علياً – ليحمل اللواء .

ويحمل اللواء بيد ، ويده الأخرى قابضة على سيفه « ذى الفقار » هذا السيف الوثيق الذى قال الرسول عنه وعن صاحبه :

[لا سَيفَ إلا ذو الفقار ولا فتىً إلا عَلِىّ] ! ! !

ولا يكاد « ابن أبى طالب » يحمل اللواء ويشْرَئِبُّ فى يده عالياً ، عزيزاً ، خفاقاً حتى يبصره حامل لواء المشركين ، فيصيح : (ألاهل مِن مُبارز) ؟

ولا يجيبه من المسلمين أحد ، فقد كانوا فى شُغل عنه بالمعركة التى

---

(١) راجع « مصعب بن عمير » ، فى كتاب – رجال حول الرسول – للمؤلف .

بلغت أقصى عنفوانها ، وشِدَّتها ، وضراوتها .

وتتكسر السيوف على السيوف ، والنِّصال على النصال .

ويُرسل حامل لواء المشركين نَعيقه مرة أخرى فينادى : (ألستم تزعمون أن قتلاكم فى الجنة وقتلانا فى النار . . ؟ ألا فليخْرج إلىَّ أحدُكم) . .

ولم يطق « على » صبراً ، فصاح به : (أنا قادم إليك يا أبا سعد ابن أبي طلحة . . فابرز يا عدو الله إلىّ) . .

والتقيا بين الصفوف الملتحمة تحت وقع السيوف وتبارزا . . فاختلفا ضربتين . . ضربه « على » ضربة واحدة ، فسقط على الأرض يعالج مصرعه ومنيته . . وهَمَّ « على » أن يضربه الثانية ليجهز عليه فتكشفت عورته أمام « على » فاستحيا ، وغض بصره وانصرف عنه ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل .

وبعد انتهاء القتال تقدم النساء المسلمات يُداوين الجرحى .

ورأى الرسول – علياًّ – وسط مجموعة منهن تكاد تعْيِيهنّ جراحه الكثيرة ، حتى قُلنَ لرسول الله حين رأَيْنَه :

– يا رسول الله : لا نعالج منه جُرحاً ، إلا انْفتَق جرح ! !

فاقترب الرسول من جسده المثْخن ، والشجاع ، وراح يُسْهم فى تضميده ويقول :

[إن رجلاً لقِيَ هذا كُلَّه فى سبيل الله ، لقد أبلى وأَعْذَر] .

* * *

وانتهت معركة « أُحُد » بهزيمة المسلمين بعد أن حققوا على أرضها نصراً عظيماً . .

وكُتُبُ السير والتاريخ تجمع على أن الهزيمة لم تكن نتيجةً لتفوُّق المشركين فى قتالهم أو فى بلائهم . . إنما كانت نتيجة خطأ ارتكبه فريق من المؤمنين – أولئك هُم الرُّماة الذى وَكل إليهم الرسول مهمة حماية المؤخرة من فوق قمَّة الجبل ، وأمرهم ألاَّ يغادروا مواقعهم مهما يكن الأمر حتى يأمرهم – هو – بمغادرتها . . بيْدَ أنهم ما كادوا يبصرون قريشاً تنهزم . . وتنسحب قواتها من المعركة مخلفة أسلابها وغنائمها ، حتى غادروا مواقعهم . . . ونزلوا إلى أرض القتال يجمعون الغنائم والأسلاب . . .

هنالك ، جمع الجيش المنسحب فلوله ، وعاد حثيثاً إلى المسلمين وقد انكشفت مؤخرتهم ، وفاجأهم بهجوم مُباغتٍ وعنيد .

* * *

وهكذا تحوَّل النصر إلى هزيمة . .

ووعَى الدرس كله ، والعبرة جميعها حاملُ لواء المسلمين آنئذ « على بن أبى طالب » كرم الله وجهه . .

لقد ازداد ساعتئذ علماً بما كان علمه من قبل : وهو أن دين الله لا ينبغى أن يكون طريقاً إلى دنيا . . وأن الذين يتقدمون ليحملوا كلمة الله ورايته ، يجب ألا يشغَلَهم عنهما أسلاب ، ولا غنائم ، ولا أطماع ، ولا مناصب . . فإن هم فعلوا وَكلَهم الله إلى أنفسهم ، وما أعجز الأنفس حين تفقد رعاية الله وتوفيقه . . ! !

حَذِق « على » هذا الدرس جيداً . . . كما حَذِقَه يومئذ أكثر الأصحاب .

وعاش « على » عمره كله لا ينساه ، فغدًا عندما تأتيه الخلافة فى فِتن كقِطع الليل المظلم ، ثم عندما تُفرض عليه تلك الصدامات المروّعة مع معاوية ، ومع الخوارج ، لن ينسى درس « أُحد » أبداً . .

لن يضَع دين الله موضع مُساومَة ، ولا مُزايدة . .

كل مغريات السلطان ، ومباهج الدنيا ، لن تظفر منه بنظرة واحدة . .

ستظل كلتا عينيه على دين الله ، لا تتحولان عنه ، ولا تغمضان دونه . .

لن يشترى سُخط الله برضاء الدنيا بمن فيها . .

ولكنه يتقبل سخط الدنيا كلها ، والناس أجمعين بلحظة واحدة من رضاء الله رب العالمين . . ! !

* * *

والآن نُتابع « البطل » فى خَيْبَر .

فأمام حصنها المنيع ارتــدَّت - أول يوم - كتيبة قوية يقودها أبو بكر الصديق . .

ثم ارتـــدَّت - فى اليوم الثانى - كتيبة أخرى ، يقودها عمر بن الخطاب . .

لم يجزع الرسول ، فما كان هو بالجازع أبداً ، وإنما ألقى على الصفوف الحافلة بأصحابه وبجيشه نظرة متفائلة وقال :

[لأعطينَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله . يفتح الله على يديه] .

يقول « عمر بن الخطاب » رضي الله عنه : [**ما تمنيت الإمارة قط إلا ذلك اليوم** ، رجاء أن أكون مَن يحبُّه الله ورسوله] . .

* * *

أصبح الصباح ، وأقبل المسلمون إلى حيث يلتقون برسولهم . . وكلهم شوق إلى معرفة الرجل الذى سيعطيه الرسول الراية ، والذى سيتم على يديه فتح ذلك الحصن الرهيب .

واكتملت أعدادهم ، واستوتْ صفوفهم . . واشرأَبت الأعناق مُتمنِّية راجية .

وشقَّ السكونَ صوتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[أين على بن أبي طالب] ؟

كان « على » هناك وسط الزحام . .

لم يخطر بباله يومئذ أن يكون هو الرجل الذى وعد الرسولُ أصحابه ، وجعله بُشرَى الفتح القريب .

لم يخطر هذا الاختيار بباله لسبب يسير ، هو أنه فى ذلك اليوم كان يشكو رمداً فى عينيه ، لا يمكنه من العمل الصعب الذى تتطلبه مهمة ذلك اليوم المشهود .

ولكنه لبَّى نداء الرسول من فوره :

– ها أنذا ، يا رسول الله . .

وأشار الرسول إليه بيمينه ليتقدم منه ، فتقدم البطل . . ورأى الرسول ما بعينه من وجع واهتياج ، فبلَّل أنامله المضيئة بريقه الطهور ، ومَسَّ بها عين البطل . . ثم دعا بالراية فأمسكها ورفعها إلى أعلى . وهزَّها ثلاثاً ، ثم

غرسها فى يمين على ، وقال :

[خُذ هذه الراية ، فامضِ بها حتى
يفتح الله عليك] . . ! ! !

دقائق ، لعلها لا تجاوز خمساً . . ولكنها تمثل حياة كاملة لا مُنتهى لأبعادها ، ولا غاية لأمجادها ! !

* * *

حمل البطل الراية ، وتقدم كتيبته يهُرول هَرْولَة . . وأمام باب الحصن نادى :

[أنا على بن أبى طالب] .

. أجل . . فإنه ليعرف تماماً ما لهذا الاسم فى أفئدة أعداء دينه من رهبة ، وما يثيره فيهم من فزع وخذلان . .

وتلقَّ « على » ضربة قوية لم تُصبه بسوء ، لكنها أطارت تِرْسه من يده . .

ورأى نفسه يواجه فرقة مسلحة من حرس الحصن ، فصاح :

[والذى نفسى بيده ، لأذوقَنّ ماذاق
« حمزة » أو ليفتحن الله لى] . !

رأى سليل بنى هاشم نفسه ، ولا دِرْعَ معه . . فاندفع نحو باب من أبواب الحصن . . ولا يدرى الناس عندها ماذا حدث ؟

كل ما يذكرون أن علياً صاح « الله أكبر » ثم التفت نحوهم وباب الحصن بين يديه . . ! !

يقول أبو رافع مولى رسول الله ، وقد كان ضمن كتيبة على :

[لقد هممتُ أنا وسبعة معى أن نحرك
هذا الباب من مكانه على الأرض فما
استطعنا] . . ! !

وهجمت كتيبة الإسلام تحت قيادة بطلها « على » . . . وفى وقت وجيز ، كانت القوة المنتصرة تردد من شرفات الحصن الذى سقط بكل ما فيه ، هُتاف النصر . .

[الله أكبر خَرِبَتْ خَيْبَر] . .

وصدقت نبوءة الرسول التى قالها لابن عمه :

[خذ هذه الراية ، فامض بها حتى
يفتح الله عليك] . . ! !

أجلْ . . لقد فتح الله عليه ، ومَنحه النصر المرتَجَى .

* * *

- والآن ، مع البطل فى يوم الخندق حيث هوجمت المدينة بأربعة وعشرين ألف مقاتل تحت قيادة أبى سفيان ، وعيَيْنَه بن حصن . .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام حين علم بخروجهم وتحركهم صَوْب المدينة ، قد استجاب لرأى « سلمان الفارسى » بحفر خندق حولها . .

وحُفر الخندق ، وفوجئ به جيش الشرك .

وانطلق من معسكر قريش التى أضناها اقتحام الخندق ، نفر من مقاتليها على رأسهم عمرو بن عبد وُدّ – وتيمَّمُوا لأنفسهم ثغرة فى الخندق ينفذون منها ، وفعلاً وجدوا مكاناً ضيقاً تقحَّمتْه خيولهم .

ووقف هو ومن معه من فرسان قريش ، أمام المسلمين ، وصاح : مَن يُبارز . . ؟

وفى مثل وَمْض البرق وجد أمامه البطل .

إذْ وقف « على » أمامه وجهاً لوجه .

وقال :

– يا عمرو ، إنك كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خُلَّتين إلا أخذتها منه .

فأجابه عمرو : أجَلْ . .

قال على :

– فإنى أدعوك إلى الله ، وإلى رسوله ، وإلى الإسلام .

قال عمرو : لا حاجة لى إلى ذلك .

قال على :

– إذن ، فأنا أدعوك إلى النزال .

قال عمرو : لِمَ يا ابن أخى ، فواللاّتِ ما أُحبُّ أن أقتلك .

قال على :

– لكني والله أُحبُّ أن أقتلك . . ! !

فغضب عمرو ، وأخذته حمية الجاهلية ، واقتحم عن فرسه وعقره ، ثم هجم على « علىّ » الذى تلقَّاه بعنفوان أشدّ ، وخاضا معاً نِزالاً رهيباً ، لم تطل لحظاته حتى رفع « على » سيفه المنتصر ، فى حين كان خصمه عمرو بن عبدِ وُدّ مُجَنْدلاً على الأرض صريعاً .

وعاد « على » إلى صفوف المسلمين ، تستقبله تحيات شاعرهم :

نَصرَ الحجارة من سفاهَةِ رأيه ونَصرْت ربَّ محمد بصواب
لا تحسَبُنَّ الله خاذِلَ دينــــه ورسوله ، يا معشرَ الأحزاب

* * *

وقبل أن نستطرد مع مشاهد بطولته الخارقة ، يحسن بنا أن نتذكر ما قلناه من قبل – ألا وهو أن بطولة « على » كانت تزدان بكل شرف الرجولة . ولم تكن قط فى خدمة هوًى أو زهو . إنما كانت فى خدمة تلك المبادئ العُلى التى هداه الله إليها والتى آمن بها « على » أوثق إيمــان .

من أجل هذا لا نعثر على مشهد واحد من مشاهد بطولته ، يمثل عدواناً ، أو بهتاناً .

وبطولته على الرغم من شموخها واقتدارها ، كانت بطولةً مسالمة عاقلة ، عادلة . .

فنى هذه البطولة الْتقت شدة البأس ولين الجانب لقاء مَوفقاً ! !

من أجل هذا نجد الرسول عليه السلام يندبُه فى مهامِّ الحرب والقتال لتلك التى تتطلب حظاًّ وافراً من ضبط النفس ولين الجانب . وفى هذا تزكية لبطولته وإطراء . .

* * *

فى ذلك اليوم المشهود – يوم فتح مكة – كان الزعيم الأنصارى « سعد بن عبادة » يحمل الراية على كتيبة كبيرة من المسلمين .

ولم تكد تتراءى له مشاهد مكة ؛ حتى استجاشته ذكريات عداء قريش للرسول ولصحبه . .

فصاح قائلاً وسط نشوة الظفر التى تستخفُّ الأحلام : (اليومَ يومُ

الملحَمة . . اليوم تُستحلُّ الكعبة) . .

قالوا : وسمعه بعض الصحابة فروَّعهم هذا النداء .

وسارع « عمر بن الخطاب » إلى النبي عليه السلام ونقل إليه كلمات سعد ، وقال معقِّباً عليها :

– يا رسول الله ، ما نأمَنُ أن يكون لسعد فى قريش صَوْلة .

وعلى الفورْ ، نادى الرسول « علياًّ » وقال له :

[أدْرِك سعداً ، وخُذ الراية منه ،
فكُن أنت الذى تدخل بها]

« علىّ » الذى شهد كل الأذى الذى صبَّته قريش على ابن عمه ورسوله . .

« علىّ » الذى يحمل طاقة زاجرة فوَّارة تحرّك الجبال . .

« على » ، وهذا يومه ، حيْث يتوقّع منه بأسُ المقاتل ، وزهو المنتصر . . يختاره أعرف الناس به لمهمة قَهرِ الزَّهو ، ونسيان الثَّأر . مُهمة دخول مكة المفتوحة ، فى تواضُعٍ وإخبات ، وسلام ! !

ومشهدٌ آخر ، يُعرفنا بجمال هذه البطولة ، وإنسانيتها ، وما كانت تتمتع به من أناة ، ومَعدَلة .

فبعد فتح مكّة ، أرسل الرسول إلى مَنْ حولها مِن القبائل سرايا تدعوها إلى الله فى غير قتل لها ، أو حربٍ معها .

وكان « خالد بن الوليد » علَى رأس إحدى هذه السَّرايا . أمره الرسول أن يسير بأسفل « تهِامه » داعياً ، لا مقاتلاً . .

وعند قبيلة بنى خذيمة بن عامر ، تصرَّف أحد رجالها تصرُّفا تسرَّع

تجاهه « خالد » فأعمل فيهم السيف . .

ونمى الخبر إلى رسول الله ، فغضب وحزن ، وبرئ إلى الله مما صنع خالد بن الوليد ، ثم رأى – عليه السلام – أن يبادر بإرسال « رسول سلام » وكان « ابن أبى طالب » هو الرسول المختار .

دعاه رسول الله إليه ، وقال له :

[يا على . .
اخرج إلى هؤلاء القوم ، فانظر فى
أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت
قدميك] .

وأعطاه الرسول من المال ما يكفى لِدَية القتلى ، وتعويض أهلهم عن كل خَسارة حَاقت بهم ، وقام « على » بالمهمة خير قيام .

وهكذا ، حيث تَضْرى البطولات ، وتستعلى الأناة والحكمة يكون « على » هو الرجل وهو البطل الذى يختاره الرسول ليقيم الميزان بالقسط ، ويمزج القصاص بالعدل ، والقوة بالرحمة ، ويضع الشجاعة تحت إمرة السَّداد والأناة والحكمة ! !

* * *

وإذا كان الفضل ما يشهد به الأعداء ، فلنستمع فى هذا المقام لشهادة « أبى سفيـان » أيام شركه ووثنيته . .

فعندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستخار النبى ربه فى الخروج إلى مكة لفتحها ، نمى الخبر إلى قريش فسُقِط فى يدها ، وأرسلت « أبا سفيان » إلى المدينة ، ليعتذر إلى الرسول ،

وليسأله الموافقة على المعاهدة التى كانت بينهما ، والتى أُبرمت يوم « الحُدَيْبية » .

ونزل « أبو سفيان » المدينة . . وقابل زعماء المسلمين راجياً أن يُزَكُّوا مهمته عند الرسول . . فكلهم رفض .

بل إن ابنته « أم حبيبة » وكانت إحدى زوجات النبى أبت أن تُجلسه على فراش رسول الله ، وكان مبسوطاً فى فناء حجرتها ساعة دخوله عليها فطَوته عنه . . ولما عاتبها فى صنيعها هذا أجابته قائلة :

[إنك مشرك . .

وفِراش رسول الله لا يطؤه مشركون]

ولما عاد إلى « مكة » خائب المسعَى ، جلس يحدِّث قريشاً عن محاولته ، فقال فيما قال :

— « . . وجئتُ ابن أبى قحافة — يعنى أبا بكر — فلم أجد منه عوناً . .

« وجئت ابن الخطاب ، فوجدتُه أعْدَى العدُوّ . . لقد قال لى :

أأنا أشفع لكم عند رسول الله ؟ والله لو لم أجِدْ إلاَّ الذَّرَّ لجاهدتُكم به . .

« وجئت « عَلِياًّ » فوجدته ألْيَنَ القوم » . . ! !

أجَلْ . . فى هذه المناسبة بالذات ، حيث لا يتوقَّع من « على » كرم الله وجهه سوى بأس المقاتل ، وتَشفِّى صاحب الثّأر ، نجد لين الجانب ورحمة الغالب يَسمانِ موقفه وتصرُّفه . . ! !

وبشهادة مَن . . ؟ بشهادة خصمه « أبى سفيان » زعيم قريش يومئذ وقائد جيوشها ، وحامل لواء وثنيتها ! !

* * *

ذلكم هو نوع البطولة التى أفاءتها مقادير « عليّ » عليه .

بطولة يقودها العقل لا العاطفة .

بطولة ، تحكمها أخلاقياتها النبيلة السَّامية ؛ فلا تستعلى على الرحمة . . ولا تزيغ عن الحق . . ولا تتنكَّب طريق الأناة والحكمة . .

وبهذه البطولة وقف « على » تحت راية الرسول فى حياته وبعد مماته . .

بهذه البطولة الشَّهمة العادلة ، قاتل المشركين ، فما تخلف عن غزاةٍ ولا عن مشهد أبداً . إلا غزاة واحدة أمره الرسول بعدم الخروج إليها ليكون خليفته فى المدينة على أهله .

ولما تململتْ روح البطل إزاء هذا التخلُّف أرضاه الرسول بقوله على ملأٍ من أصحابه .

[أما يُرضيك أن تكون مِنِى بمنزلة
هارون من موسى ، إلاّ أنه لا نَبِىَّ
بعدى] . . ! !

وبهذه البطولة الشهمة العادلة ، سيخوض قتاله مع « معاوية » ومع « الخوارج » :

وسيواجه الفتن الحالكة التى تَدَعُ الحليم حيران ، بأخلاقه الطاهرة ، قبل أن يواجهها بمقدرته القاهرة . .

لن يجد بأساً – أىَّ بأس – فى أن يخسَر ألف معركة ، ولكنه لن يسمح للظروف مهما تبلغ ضراوتها وشدتها أن تسلبه فضيلة واحدة من فضائل نفسه وفضائل دينه .

والحق أن معارك – الحروب الأهلية – التى اضطرَّ الإمام لخوضها

كانت أعظم مجَالى عظمته ، ورجولته ، ونُبله ! !

فإلى هناك لنرى بعض مشاهدها .

إن « مِنصَّة الأستاذية » قد رفُعت فوق المشقَّة والهول ، وقد علاها « البطل والمُعَلِّم » لِيُرِىَ الدنيا – على الطبيعة – كيف تعمل البطولات العظيمة فى نُبل ، واستقامة ، وشرف .

الفصل الرابع

الخليفة والقدوة

[إنما أُعطيكم ما تُرزَءون لا ما
تَرْزَءون . . .]

« الرسول »

كلما تعاظمت مسئوليــاته ، تألقت فضائله ومزاياه .

وتلك أصدق دلائل العظمة الإنسانية ، وأوثق براهينها . .

فحيث تثقل المسئوليــات كالجبال . . وحيث تفرض خلال احتدامها وجيشانها توتُّراً قاسياً على الإرادة والفكر ، تجد الفضائل الطارئة فرصتها للانكماش والتقهقر . أما الفضائل الأصيلة الجليلة فلا شيء يشحَذُ تفوقها وأقتدارها مثل هذا المجال ! !

* * *

ولقد كُتب على « ابن أبي طالب » أن تكون حياته موكباً موصولاً من المسئوليات الجسام .

أكانت أقداره تُحابيه بهذا ؛ لتجعل حياته عرضاً مستمرًّا لفضائله المتألقة ، وعظمته السامقة . . ؟

إن إحساسه ، وإن إيمانه بالمسئولية لعجيبان !

ولكن العجب يفقد مكانه ، مادامت الأقدار قد جعلت منه ابن

عمَّ الرسول وصهره وتلميذه الأول . .

فمن يَكُ مكانه من الرسول هذا المكان ، فإن عليه أن يُعطِى ، ولا يأخذ . . وأن يَغْرَم ، ولا يَغْنَمُ . .

عليه أن يهيئ نفسه لِشظفِ العيش ، ولأْواء الحياة . .

أما مناعمها ، ومباهِجُها ، بل مُجرد الراحة فيها ، فأشياء لا تنبغى لمحمد ، ولا لآل محمد . . ! !

تلك قضية وعاها « على » جيداً ، فيما وعى . .

وابنُ عم الرسول وتلميذه ، خير من يضع إرادته وسلوكه فى خدمة الحق الذى يَعيه .

إنه بغير تكلُّف ، وبغير إعمال أومحاولَة . يجد طاقاته جميعاً تبلغ أوْج احتشادها واكتمالها ، كلما بلغت الأخطار والتبعات ذروة تجمُّعها وتحدِّياتها .

وإنه بغير تكلف ، وبغير إعمال أومحاولة كذلك ، يجد فضائله جميعاً تحلِّق فى ذُرى جلالها وسموها عند الخطر ؛ لترسم لمقدرته ولبطولته أسلوب العمل ! !

هكذا تعلم من « محمد » ابنِ عمه وكافِله . .

وهكذا تعلم من « الرسول » مُعلِّمه وهاديه . .

فلقد رآه عندما بلغ الخطر به وبعمه أبى طالب ، غايته الماحقة ، تتقدم فضيلة الصُّمود فى جلالها المهيب فتقهر الخطر ، وتعبر عن نفسها فى هذه الكلمات :

[واللهِ ، لو وضعوا الشمس فى يمينى

والقمر فى يسارى ، ما تركتُ هذا
الأمر حتى يظهره الله أو أهلِك دُونه] . .

ثم رآه يوم الفتح ، وقد تعلّقت مصاير قريش كلها بكلمة واحدة تنفرج عنها ثناياه ، فإذا فضيلة الصَّفح تتقدم فى أنْسها الرَّحيب وحنانها الرَّطيب ؛ لتقول للقتلة الذين جوَّعوا أهله ، وقتلوا أصحابه ، ومضغوا كَبِد عمه بعد أن مثَّلوا بجثمانه الطهور أبشع تمثيل .

[اذهبوا ،
فأنْتُمُ الطُّلَقَاء] . ! ! !

* * *

ليس هناك خطر مهما عَظُم ، يستطيع أن يُقاِعس الفضائل الرفيعة عن دَوْرها فى توجيه الكفاية والبطولة .

وليس هناك فى كل مفاتن الدنيا ما يستطيع أن يفتن الرجل العظيم العادل عن مسئوليـاته العظيمة العادلة . .

هذا هو الدرس الذى حَذِقَه « على » عن الرسول ووعاه . .

يُضاف إليه ، بوصفه من آل بيت الرسول ما ذكرنا من قبل وهو : أن يُباشر مسئولياته ، ويحيا جميع حياته وسط دائرة صارمة من الزهادة ، والشظَف . .

ليس له فى طيباتها المشروعة ، ولا فى مناعمها الحلال حظ أو نصيب ! !

عرف ذلك من قول الرسول ومن عمله وسلوكه معرفة لا تحتاج إلى مَزيد .

عرفه حين كان يراه يضنُّ على نفسه بشربة لبن . . ثم يرسلها لفقير من المسلمين . . !

وعرفه ، يوم أرسل إليه زوجته « فاطمة » بنت الرسول تسأله حقاً يسيراً ناله جميع المسلمين ، فإذا هو يجيبها ودموع الوالد الحنون تملأ عينيه :

[لا ، يافاطمة . .
لا أُعطيكِ وأدعُ فقراء المسلمين] !

وعرفه ، حين رأى عمه « العباس » يسأل الرسول ولاية ، هُو لها أهل وبها جدير ؛ فإذا الرسول يجيبه فى أسف :

[إنّا والله يا عَمِّ ، لا نُولِّ هــذا
الأمر أحداً يسأله ، أو أحداً يحرص
عليه] ! !

وعرفه أكثر وأكثر ، يوم فتح مكَّة ، حين حمل « علىٌّ » مفتاح الكعبة ، وتوجه تلقاء الرسول وهو جالس وسط أصحابه فى المسجد الحرام وقاله له :

[يا رسول الله . .
اجعل لنا الحجابة مع السّقاية صلى
اللهُ عليك] .

فإذا الرسول يبسط إليه يمَينه ، ويأخذ منه مفتاح الكعبة ثم ينادى : (أين عثمان بن طلحة) ؟ . . وكانت وظيفة حجابة البيت الحرام معه ومع أسرته من قبل . .

حتى إذا نهض عثمان بن طلحة قائماً ، أدْناه الرسول منه ، ووضع

مفتاح الكعبة فى يده وقال له :

[هَاكَ مفتاحَك يا عثمان اليوم يوم
برٌّ ووفاء . . ! !]

ثم يلتفت صوب ابن عمه عَلِىّ ويقول له :

[إنما أُعْطِيكم ما تُرْزَءُون لا ما
تَرزَءُون] . . ! !

أى أن حظكم فى هذه الحياة الدنيا ، المسئولية مع الشَّظَف . . لا شىء دون ذلك ، ولا شىء فوق ذلك . .

أما بقيَّة الدنيا ، من منصب ، أوجاه ، أومال فلا ينبغى لكم أن تُنافسوا فى شىء من ذلك أحداً ، ولا أن تَرْزَءُوا فيه مخلوقاً ! !

هل هُناك حاجة إلى مزيد من البيان لكى يعرف « على » طبيعة وحقيقة دوره فى الحياة . . !

لا . .

وإن القضية لواضحة كالنّهار .

وتلك هى :

[إنما أُعطِيكم ما تَرْزَءُون لا
ما تَـرْزَءُون] . . ! !

عليه — إذن — أن يحمل مسئولياته كلها فوق كاهله الشجاع ، ويمضى . .

وعليه — إذن ، ألا ينتظر من الدنيا جزاءً ولا ينتظر منها شكوراً . . فليس لآل محمد فيها سوى أن يُعطوا . . أما أن يأخذوا فلا . .

إن الدنيا لأهْوَنُ على الله من أن تكون لهم مثوبةً وجزاء . .

وليس هناك من آل بيت النبي من أدرك هذه الحقيقة وآمن بها مثل الإمام على . .

بل لقد أدرك أيضاً ، أن طيبات الحياة التى يجد فيها الآخرون أفراحاً ومسرَّات . . تتحوَّل حين تلقيها المقادير على آل البيت إلى رُزْءٍ ومشقة ! !

ذلك لأنهم لا يبحثون خلال هذه الطيبات عن المنفعة والمُتْعة ، بل عن الواجب والتَّبعة .

ومن آل البيت كذلك ، لانجد أحداً يفوق « علياً » رضى الله عنه فى السير بحياته وفَق هذا الإدراك . .

فحين جاءته الخلافة . . خلافَةُ أعظم دول الأرض يومئذ نفوذاً وسيادة . . كانت هذه الخلافة التى يسيل لِتَبوُّئها لُعاب الملوك ، رُزْءًا أصاب الإمام . .

ولوشاء لجعلها مصدر نعيم لا ينتهى ، ومسرَّات لاتسكت طبولها . .

ولكن ، لأنها تحوَّلت بين يديه إلى مسئولية يُمارسها ضمير بلغ الكمال فى ورعه ، واستقامته ، وفى تقواه وصرامته . . آنئذ لم تعد الخلافة مع « الإمام العظيم » أكثر من رُزء ، يحمله فى جَلد الصابرين الغارمين . . لا فى نشوة الفرحين الغانمين . . ! !

* * *

إن المسئولية وحدها هى التى تعنيه . .

وموضوع المسئولية — أيَّة مسئولية — هو الحق ، ولاشىء سواه . .

فإذا رأى الحق ، حمل مسئوليته عنه من فوره ، وإذا حمل مسئولية ما ،

فإن العواقب لا تدخل فى حسابه أبداً . .

* * *

وهذا يفسر لنا موقفه من الخلافة ، منذ انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى – إلى أن لحق هو بهذا الرفيق .

فعندما بويع « الصديق أبو بكر» رضى الله عنه بالخلافة استأخَرت يمين « الإمام على » كرم الله وجهه عن البيعة . .

لماذا . . ؟

لقد أعطى هو السبب فى وضوح خلال حواره مع الصحابة ، وعَلى رأسهم أبو بكر وعمر فقال :

[إنكم تدفعون آل محمد عن مقامه
ومقامهم فى الناس ، وتنكرون عليهم
حقهم .
أمَا والله لنحنُ أحق منكم بالأمر
مادام فينا القارئ لكتاب الله . .
الفقيه فى دين الله . . العالم بسنن
رسول الله . . المضطلع بأمر الرعية . .
القاسم بينهم بالسويّة] . .

فهو – إذن – يرى ، بل يعتقد أنه ما دام الرسول عليه السلام لم يعهد بالخلافة لأحد بذاته ، فإن البيت الذى اختارته السماء ليكون منه النبى المصطفى ، هو البيت الذى يختار منه المسلمون خليفتهم ، مادام فى رجال هذا البيت من يتمتع بالكفاية الكاملة لشغل منصب الخلافة .

أجل ، فليس الانتماء لبيت النبوة هو وحده مبرر هذا الترشيح . بل لا بد قبل ذلك من الكفاءةِ الكاملة التى تتمثل فى الطاعة المطلقة لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، وفى الاضطلاع القويم بأمر المسلمين . .

هكذا قال الإمام :

[. . ما دام فينا القارئ لكتاب الله
« الفقيه فى دين الله . .
« العالم بسنن رسول الله . .
« المضطلع بأمر الرعية . .
« القاسم بينهم بالسّويَّة . .]

* * *

ولسنا هنا بصدد مناقبشة رأى « الإمام » فى خلافة « الصِّديق » رضى الله عنهما .

ولكننا نقرر عن يقين ، أن الإمام فى موقفه ذاك لم يكن مدفوعاً برغبته الشخصية فى منصب الخلافة ، ولم يكن ينفس على « أبى بكر» هذا المنصب .

إنما كان يدافع عن حق رآه واعتقده . . ولم يكن بالنسبة له موضع ريب أوشك .

فعندما اجتمع المسلمون فى « سقيفة بنى ساعدة » ، ورأى الأنصار أن يكون الخليفة منهم . . فى حين رأى المهاجرون أنهم أحق وأولى . كان بعض منطق المهاجرين الذى رجَّح كفتهم ، قولهم للأنصار : إن رسول الله كان منا نحن المهاجرين ، فلتبق الخلافة فى أهل الهجرة !

فهذه الحجة نفسها كانت بعض منطق الإمام . .

فإذا استحق المهاجرون منصب الخلافة ، لأن الرسول منهم . . فآل بيت النبي أحق بها ، لأن النبي منهم . هكذا فكّر الإمام . .

ولكن من الخير لنا ألاّ يفتننا الشكل الخارجى لهذا الخلاف عن جوهره وحقيقته .

فأصحاب النبي الكبار بإيمانهم وبتقواهم من أمثال أبى بكر ، وعمر ، وعلى وعثمان ، لا يتنافسون مغنماً من مغانم الدنيا مهما عظُم ، لا سيَّما فى دلك الوقت حيث كانت فجيعتهم بموت نبيهم لا تترك فى أنفسهم المفعمة بالأسى مكاناً لأىٍّ من رغبات الحياة . .

وإنما يرجع استمساك كل منهم بموقفه إلى أن كلا منهم وقف إلى جانب اقتناعه ، وما اعتقد أنه الحق . .

ثم إن الخلافة ، وإن تكن فى شكلها الخارجى تشكل سلطة سياسة ، ومنصباً دنيوياًّ ، إلا أنها فى أفئدتهم وفى إدراكهم الحقيقى لها ، لم تكن سوى وظيفة من أسمى وظائف الهداية ، والقُدوة . . وفى مثل هذا لا جَرَم أن يتنافس المتنافسون .

إن كل وقائع التاريخ وحقائقه تؤكد فى غير لبس أن أبا بكر ، وعمر ، وعلى — هؤلاء الثلاثة بالذات ، لم يكونوا يرون فى منصب الخلافة سوى عبء فادح مُبْهِظ ، ولولا أن الهروب منه خيانة لله ولرسوله وللمسلمين ، لجعلوا بينهم وبينه بُعد المشرقَينْ . .

فلا الطموح الشخصى ولا الرغبة فى النفوذ والسلطة ، كان لهما أو لإحدهما مكان بين دوافع ذلك الخلاف .

كان الفريق الذى آثر اختيار أبى بكر ، ينظر إلى سابقته فى الإسلام ، وإلى سنِّه وحكمته وخبرته ، وإلى ذلك الإيمان المعجز الذى حمله قلبُ رجل جعل شعار حياته كلها مع رسول الله :

[إنْ كان قال ، فقد صَدق] ! !

كانت المزايا التى تدعوها لاختيار « أبى بكر » تملأ الأفق ألَقاً ، ومجداً ، وعبيراً . .

وهى مزايا لم ينكرها « الإمام العظيم على » لحظةً من نهار .

ولقد جهَر بها ، وهو يُبايع « الصِّديق » فيما بعد فقال :

[يا أبا بكر . .

« إنه لم يمنعنا من أن نبايعك إنكار لفضلك ، ولا نفاسةٌ عليك لخير ساقه الله إليك . .

ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقاًّ أخذتموه] .

كما عبرَّ عن هذه المزايا تعبيراً أجمع وأروع حين وقف يرثى « أبا بكر » بعد وفاته ، فيقول :

[رَحمكَ الله أبا بكر . .

« كُنتَ والله أوَّل القوم إسلاماً . .

« وأخلَصَهم إيماناً . .

« وأشدَّهم يقيناً . .

« صدَّقتَ رسول الله حين كذبه الناس

« وواسَيْتَه حين بَخلوا . .
« وقمت معه حين قعدوا . .
« كنت والله للإسلام حِصْناً ،
« وللكافرين ناِكباً . .
« لم تهِنْ حجّتُك . .
« ولم تضعُف بصيرُتك . .
« ولم تَجْبن نفسك . .
« كنت والله كما قال الرسول فيك .
« ضعيفاً فى بدَنك . .
« قوياًّ فى دينك . .
« متواضعاً فى نفسك . .
« فلا حَرمنا الله أجْرَك . .
« ولا أضلّنا بعدك] . . ! !

أجل ، كان الرجلان اللذان تحرَّك بينهما « بندول » الاختيار بُعيد وفاة الرسول من طراز رفيع ، رفيع ، رفيع . .

وكان الرجل الثالث الذى لعب الدور الأول فى اختيار أبى بكر فى نفس المقام من الرفعة والعظمة . .

ويكفى أن يُذكر اسمُ أيٍّ منهم « أبو بكر » أو « عمر » . . أو « على » . . حتى تتفتح الأبواب عن عالمٍ من الفضائل والرفعة والتُّقى ، ليس له نظير ! !

ولقد سعى « أبو سفيان » إلى « الإمام على » أكثر من مرة يحضه على الاستمساك بحقه فى الخلافة ويقول :

– إن شئتَ لأملأنّهَا عليهم خيلاً ورجلاً ، ولأسدّنّهَا عليهم من أقطارها .

ولكن الإمام الزاهد ، الورع ، الفاهم ، يردّه فى كل مرة ويَدْحَضُه :

[يا أبا حَنْظَلة . .
إنك تدعونا لأمر ليس من أخلاقنا
ولا من شِيَمنا . .
ولقد سددتُ دونها باباً ، وطويت
عنها كَشْحاً] .

* * *

أجَل . . فاختلاف وجهات نظر الأبرار حول الحق . لا يُخرج الأبرار من دائرة الحق ، والفضل ، والأمانة . .

إن خلافهم ليس على دنيا يتنافسونها ، ومن ثمَّ تبقى آفات الدنيا بعيدة عن إيمانهم وعن أخلاقهم ، وتبقى بعيدة عما يختلفون فيه ، بُعدها عما يتفقون عليه . ! !

وهكذا طوى – الإمام – عنها كَشحاً ، وأغلَق دونها باباً ، وتفرَّغ لعبادة الله وتفقيه المسلمين ، وإسداء المشورة والنصح لوليِّ الأمر . .

فالمشكلات كلها ، والمعضلات جميعها لم يكن لها إلاَّ عليّ . .

ولطالما كان الخليفة « أبو بكر» يسعى إليه ويقول له :

[أفْتِنَا يا أبا الحسن] . . ! !

ولطالما كان الخليفة « عمر» يستنجد بفقهه وبذكائه وببصيرته ، ثم يقول :

[لولا عَلِىٌّ ، لهَلَكَ عُمر] . . ! !

ولطالما كان الخليفة « عثمان » يَأرِزُ إليه ، ويستعين به ويستنصحه ، لكنْ عندما أوْغلَت الحاشية المحيطة به فى الأمر ، استطاعت للأسف أن تفسد ذات بينهما ، فلم يُقدَّر لنصح الإمام ولمشوراته الأمينة العادلة أن تبلغ من اهتمام الخليفة ما تستحقه .

وباستشهاد الخليفة « عثمان » دُعى « الإمام على » ليتسلم الرُّزْءَ الكبير – منصب الخلافة . . ! !

وهكذا جاءته أخيراً . . مُثخنةً بالجراح ، مُثقلة بالمتاعب ، معبَّأةً بالعواصف . . ! !

حقاً ، إن « آل محمد » ليس لهم من حظوظ الدنيا إلا ما يُرزَءُون ! !

* * *

فى أواخر عهد « عثمان » رضى الله عنه ، لعبت أهواء نفر من بنى أمية بمصاير الدولة و بمقاديرها لَعباً أفضى آخر الأمر إلى فتنة مسلحة تنادى لها أصحابها من شتىًّ أقطار الإسلام ، واستغلها على نطاق واسع أعداء الدين الجديد الذين هدّم عالَمهم القديم كله ، وقضى على مصالحهم وضلالهم . .

وبلغت الفتنة فى جولتها الأولى غاية احتدامها وظلامها بمقتل الخليفة « عثمان » .

ولسنا الآن بصدد الحديث عن وقائع تلك الأحداث الرهيبة فسيكون مجال ذلك فى كتابنا القادم إن شاء الله عن « عثمان » رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين .

أما هُنا ، فسنكتفى برؤية الظروف الحالكة التى حمل فيها

« أمير المؤمنين على » كرم الله وجهه تبعة الحكم ، ومسئولية الخلافة . .

لقد قصده الثوار إثْر فراغهم من اقتراف جريمتهم النكراء .

قصدوه وأيديهم لم يجفَّ منها دم الخليفة الشهيد الذى اغتالوه فى بشاعة مفزعة .

ورفض « الإمام » بعد أن ألقى عليهم من تقريعه ووعيده ما جعلهم وهم فى بأسهم المتقد يتقامئون ، ويتخاذلون ، وينصرفون عنه فى خزى وهوان . !

ذهبوا إلى « طلحة » فرفض ، وإلى « الزُّبيرْ » فرفض . . وإلى « عبد الله ابن عمر » فرفض وإلى « سعد بن أبى وقاص » فرفض . .

ومن ذا الذى يقبلها ، وقد رفضها الإمام على ؟

والحق أن رفض « على » لها هو الذى حتَّم عليه آخر الأمر قبولها . .

ذلك أنه برفضه هذا ، ذاد عنها كل الرجال حتى الطامعين فيها . . ولم يجرؤ أحد ، وقد رأوا « بن أبى طالب » يرفضها احتجاجاً على اغتيال الخليفة الشرعى « عثمان » نقول : لم يجرؤ أحد أن يتقدم منها أو يتلقَّ مسئوليتها . .

ولكن لابد للدولة من حاكم وخليفة ، وكل دقيقة تمر والمكان شاغر ، تشكل خطراً قد يودى بمصير الأمة كلها والإسلام كله .

ولقد أدرك ذلك سريعاً جميع الناس بالمدينة — أهلَها . . والثوار الطارئون عليها . . الساخطون على مقتل « عثمان » والمشتركون فيه . .

كلهم أدركوا الخطر الماحق المزلزل الذى سيحل الأمة فى أقطارها القريبة والنائية إذا لم يمسك بالزمام على الفور ، رجل مقتدر يستطيع أن

يقف جموح الفتنة ، ويرأب ذلك الصَّدْعَ العريض . .

وهكذا عاد « الثوار » إلى الإمام يُلحّون ويرجون . .

وقَبْل الثوار ، تقدم الراشدون من أهل المدينة يبايعون « علياً » على الخلافة .

وبهذه البيعة التى كانت – يومئذ – الطريقة التى يُختار بها الخليفة ، صار « الإمام علىّ » خليفة للمسلمين .

* * *

لم يكن بين أصحاب رسول الله الأحياء يومئذ ، من يفوق « الإمام » فى كفاياته الهائلة التى تجعله جديراً بمكانه فى الخلافة . .

ولم تكن الخلافة عندما عُرضت على « الإمام » وعندما قبلها ، تشكل أى مغنم من مغانم الحياة . . بل كانت تشكِّل عِبئاً ، لحامله الوَيل كل الويل ، إن لم يُعنْهُ الله . .

وكان الواجب الكبير الذى ينتظر كل مؤمن وكل مسلم يومئذ ، بَذْل العون المستطاع لوقف امتداد الفتنة ، وذلك بالوقوف فى ولاءٍ وصدقٍ وإيثارٍ وراء « المنقذ » الذى تقدم ليحمل مسئولية الموقف كله ، وليدْرأ عن الإسلام ودولته وأمته أخطاراً لو قُدِّر لها أن تبلغ مداها ، لأتتْ على البناء كله من قواعده . .

لكن ذلك لم يَكُن . . بل كان نقيضه تماماً . .

* * *

إن رجولة الإمام ، وبطولته ، وعظمة مبادئه وسلوكه ، تتجلى الآن فى أبهى صُورها ، وقد صار خليفة وسْط الأهوال . .

تتجلىَّ فى الدرس الذى تركته حياته للدنيا بأسرها . ألا وهو أن الولاء السَّديد للحق ، يتمثل فى الوقوف الصامد إلى جانبه ، وليس فى الدوران حوله ، لأن الوقوف إلى جانبه مهما يصاحب ذلك من هزائم ومصاعب ؛ هو وحده الذى يزيد فى نفوذ الحق ، ويجعل انتصاره النهائى أمراً محققاً .

بروح هذا الإدراك لقيمة الحق ، وبوثاقة هذا الولاء له ، بدأ « ابن أبى طالب » مَهامَّ منصبه كخليفة .

لقد بدأ يردُّ طريقة العطاء من بيت المال إلى النهج الذى كان يسير عليه الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » . .

وكان « الصِّديق » رضى الله عنه ، يعطى جميع الصحابة والمسلمين بالسَّوية دون تفريق بين مَن سَبَق إلى الإسلام ؛ ومن جاء متأخراً . .

فلما وُلِّىَ الخلافة « عمر » رضى الله عنه نهج نهجاً آخر ، فجعل للسابقين الأوَّلين ، أكثر مما يأخذ الذين تأخَّر إسلامهم . . وقال فى ذلك قولته المأثورة :

[لا أجعل مَن قاتَل رسول الله ،
كمن قاتَل معه] . .

يشير بهذا إلى أنه لا يُسوِّى فى العطاء بين الذين التفُّوا حول الرسول مبكرين ، وقاتلوا معه من أول يوم ، وبين الذين طالما قاتلوه وهم كفار ، ثم صاروا فيما بعد من المسلمين . .

وكان « الإمام على » أمْيَلَ إلى نهج أبى بكر ، مُفسراً رأيه ، بأن الدولة لا تعطى المسلمين مَثوبة دينهم وثَمَن إيمانهم ، فمثوبة الدين والإيمان

عند الله . . إنما تعطيهم حاجتهم ليعيشوا ، ومن ثمَّ فلا داعى للتمييز بينهم أو التفضيل .

كما أن التفاوُت فى العطاء من شأنه أن يخلق فرص تراكم الثروات لدَى بعض الأفراد . . مما يشكِّل مع الزمن فتنةً فى الدين وفساداً فى الدنيا . .

* * *

وفى خلافة أمير المؤمنين عمر ، لم تدَعْ صرامته ويقظته أىَّ مجال لتراكم الثروة ، فقد كان حسبه أن يعلم أن « فلاناً » من وُلاته قد فاضت نعماؤه وكثر ثراؤه ، حتى يرسل إليه فيقاسمه كل ما يملك ويرده جميعاً إلى بيت مال المسلمين .

* * *

ولكن فى خلافة « عثمان » وكان المسلمون قد بلغوا من الجُهد أقصاه بسبب ذلك الشَّظف وذلك الزهد اللذين فرضهما عليهم فى جلال باهر أميرهم العظيم « عمر بن الخطاب » .

كما وجدوا فى الخليفة الجديد « عثمان » من الطيبة والتسامُح ، ما أغراهم بأن ينالوا من طيبات الحياة كل ما يستطيعون .

هنالك انفتحت أبواب الدنيا بغير حساب ، ولئن وجدت من أصحاب الرسول من يعتصم دونها بورعه وبزهده وتُقاه . . فقد وجدت من بعض المسلمين ، لاسيما الذين أسلموا بعد الفَتح ، والذين أسلموا بعد وفاة الرسول ناساً كثيرين ، استسلموا لعَرَض الحياة الدنيا ، وفتنتها ، وعجزوا عن النهوض إلى مستوى الحياة التى يرسمها الإسلام للمسلم ، وخاصة فى أيامه الأولى . .

ولقد صار لكثير منهم ضِياع ، وتجارة عريضة ، ثروات وقصور وبذخ ، لاسيما ذلك النفر من الأمويين ، الذين استغلُّوا ظروفاً مُعينة ، ليجعلوا من أنفسهم طبقة متميزة بثرائها وبنفوذها .

* * *

جاء « الإمام على » فقرر أن يرد العطاء إلى نهج أبى بكر . . وهو يعلم علْم اليقين أن ذلك سيغضب منه بعض الصحابة الكِبار الذين أيّدوه ، ولا يزال فى حاجة أكيدة لاستمرار تأييدهم .

ولكن ابنَ عَمِّ الرسول لا يعرف المساومة فى الحق ، فليقف إلى جانب الحق ، وليكن ما يكون . . . !

هذه واحدة . .

والثانية التى نادت إليه المتاعب ، وفعلَها فى ولاء للحق وثيق ، هى أن نفراً من وُلاة الخليفة الراحل « عثمان » لم يكونوا فى رأى « على » أهلاً لهذه الولاية . . ولقد كانوا السبَبَ المُباشر فى الفتنة الرهيبة التى أودَت بحياة الخليفة « عثمان » . . لذلك بدأ « الإمام » فى الساعات الأولى لخلافته يصدر أوامره بعزل هؤلاء ، واضعاً مكانهم فريقاً من الأصحاب الذين معهم من الدين ، ومن الاستقامة ، ومن المقدرة ما يجعلهم موضع ثقة الخليفة ، وملاذَ المسلمين . .

عزلَ أولئك ، وولىَّ هؤلاء . . وكان ضمن المعزولين « معاوية » الذى كان يومَئذ والياً على الشام بأسرها .

وكان « مُعاوية » قد طَال بالشام مُكثُهُ ، وكان يُعِدُّ لطموحه البعيد كل احتياجات الغَد المرتقب ، ومن ثمَّ أتمَّ هناك بناء جيش قوى .

وتألَّفَ الناس بالأموال و بالدهاء حتى صارت الشام حصنه المغلَق ، المنيع . .

كان أمير المؤمنين « على » يعرف هذا جيداً . . كما كان يعرفه بعض أصحابه الذين ذهبوا إليه يرجونه متوسلين أن يُرجئ عزل ولاة « عثمان » وخاصة معاوية ، حتى يعطوه البيعة ، وحتى تستقر الأوضاع المضطربة وحتى يُمكِّن « الخليفة » لسلطانه ، ثم بعدها يعزلهم كيف شاء . .

ولكن « ابن عمِّ الرسول وتلميذه الصَّدوق » لا يعرف المساومة فى الحق ، فهو يرفض أن يبقى واحد من هؤلاء فى مكانه يوماً واحداً . .

ويذهب إليه ابن عمه « عبد الله بن عباس » يرجوه أن يرجئ أمر « معاوية » بعض الوقت ، وستأتى قريباً فرصة عَزله . .

لكن الإمام الراشد يرفض – برغم كل العواقب – أن يتحمل أمام الله مسئولية إبقاء معاوية فى مكانه والياً للمسلمين ، ولو ساعةً واحدة من نهار ، قائلاً عبارته المأثورة :

[لا والله ، لن يرانى الله مُتَّخِذَ المُضلِّينَ عَضُداً] . . ! !

وأمام ولائه الباهر لمسئولياته ، لم يضيع وقته هدراً . .

فقد نهض على الفور فأرسل عُماله الجدد إلى الأمصار :

عثمان بن حنيف ، إلى البصرة . .

وعمارة بن حسان ، إلى الكوفة . .

وعبد الله بن عباس ، إلى اليمن . .

وقيس بن سعد بن عُبادة ، إلى مصر . .

وسُهَيْل بن حُنيف ، إلى الشام . .

ولقد تسلم الوُلاة عملهم فى سلام ، إلا سُهيل بن حُنيف ، والى الشام الذى عُيِّن مكان معاوية ؛ فإنه لم يكد يصل أرض « تَبُوك » المتاخمة للشام حتى استقبلته كتيبة من جيش معاوية حالت دون دخوله البلاد .

ولما رجع إلى المدينة ، حاملاً هذا النبأ إلى الإمام ، لم يفاجأ بما سمع فقد كان يتوقع من معاوية مثل هذا التمرد غير المشروع . .

* * *

طوال حياته العظيمة ، لم يتعود « علىٌّ » قط أن يكون هناك خِيارٌ بين مبادئه ، ومصالحه . .

وذلك لسبب يسير ، هو أنه لم تكن له مصالح أبداً . .

كانت حياته رسالة . . وكان عمله وسلوكه تعبيراً وافياً عن هذه الرسالة . .

وإنه الآن لقَادِرٌ بقليل من الدهاء والمسايرة ، أن يطوى « معاوية » حتى يقتلعه من مكانه فى هدوء .

ولكنه يتساءل دوماً : ما حاجة الحق إلى أن يُساوم . . وإذا ساوَم الحق فما مزيته على الباطل . . ؟ ؟

وها هو ذا يتصرف الآن وَفق هذا الإدراك لقيمة الحق ولقداسته .

لقد عزل « والياً » لا يراه أهلاً لمكانه ، ورفض هذا الوالى تنفيذ أمر حليفته ، ورئيس دولته .

إذن ، فليتحمل مسئولية موقفة وتمرده . .

هناك كتب إليه الإمام :

[. . أمَّا بعد ،

فقد بلغَك الذى كان من مُصاب
عثمان ، واجتماع المسلمين علىَّ ومبايعتهم
لى ، فادخل فى السِّلْم أوائْذَنْ بحرب] .

كان يرجو أن تردع هذه الكلمات « معاوية » ولكن رد « معاوية » كان عجيباً . . فقد قال لرسول الخليفة : [عُد أنت إلى حيث جئت ، وسأرسل بجوابى مع رسول من عندى] .

وفعلاً ، أرسل جوابه مع رجل من بنى عَبْس قطع الطريق إلى المدينة حاملاً رسالة حاكم الشام . . .

وما كاد « الإمام على » يفضّ الرسالة ليقرأها ، حتى ملأت الدهشة مُحياه . .

لقد كانت الرسالة ورقة طويلة وعريضة ، ليس فيها من كلام مسطور سوى هذا السطر الواحد :

– من معاوية بن أبى سفيان ، إلى على بن أبى طالب . . ! !

وارتسمت على شفتى « الخليفة » ابتسامة مريرة ، والْتفت صوب مبعوث معاوية الذى كان قد نهض وراح يتكلم قائلاً :

– أيها الناس ، اسمعوا منى وافهموا عنى . .

« إنى قد خلَّفتُ بالشام خمسين ألفاً ، خاضبى لحاهُم بدموع أعينهم تحت قميص عثمان ، را فِعيهِ على أطراف الرِّماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيمُوا سيوفهم حتى يقتلوا قتَلته أوتلْحَقَ أرواحهم بالله » . . ! !

هذه إذن : رسالة « معاوية » .

وهذه خُطته المرسومة لمناهضة الخليفة الجديد .

قميص عثمان . . ! !

نحن هنا ، وفى كتبنا المماثلة[١] لا نؤرخ للوقائع ، إنما نُؤرخ للعظَمَة . .

أجل . . العظمة الإنسانية التى بلغت فى الذين نؤرخ لهم ذُراها السامقة ، وغاياتها البعيدة . .

من أجل هذا ، لا ندع – الآن – ضجيج الحوادث وأفواج الوقائع ، تصرفنا عن تتبع العظمة التى يرسمها لنا « الإمام » . . وبمواقفه تجاه الوقائع والأحداث .

لقد سارت الأحداث على النحو الذى ساعد معاوية ، بينما زاد الأمور صعوبة وتعقيداً أمام « الإمام » .

فالسيدة « عائشة » رضى الله عنها ، وكانت قد خرجت إلى « مكة » معتمرة قبل مقتل « عثمان » قد جزعت لمقتله أشد الجزَع .

و« الزبير » و« طلحة » من كبار أصحاب رسول الله ، وقد تركهما « الإمام » يغادران المدينة إلى مكة عندما طلبا ذلك . على الرغم من نصيحة بعض أصحاب « الإمام » له كى يحتفظ بهما إلى جانبه حتى يأمن أمرهما .

عائشة أم المؤمنين ، والزبير ، وطلحة ، صاحبا رسول الله . . ساروا على رأس حشد كبير من المسلمين إلى البَصْرةَ ، ليحرضوا المسلمين بالعراق على الثأر من قتلة عثمان . .

وكان « الإمام على » قد غادر المدينة إلى العراق عندما جاءته رسالة

---

(١) كتاب « محمد والمسيح » وكتاب « وجاء أبو بكر » و« بين يدى عمر » و« رجال حول الرسول »

معاوية التى مرَّ بنا ذِكرها ، وقال الإمام :

[إنّ لأهل الشام وَثْبَةً أُحب أن أكون قريباً منها] . .

ولكنه ، وهو فى طريقه إلى العراق ، جاءته الأنباء بمسيرة عائشة ، وطلحة ، والزبير إلى البصرة .

أىُّ رزْءٍ هذا ، وأى ابتلاء ؟ !

ألا يُترك ثأر « عثمان » للدولة تقوم به ، وتقتصُّ له فى الوقت المناسب والفرصة الملائمة . . ؟

* * *

لم يكن لدى « الإمام » ريب فى اقتناع « السيدة عائشة » . و« طلحة » و« الزبير » ببراءته الكاملة من دم عثمان . . ففيم إذن خروجهم . . ؟

إن النبأ السَّارى يقول . إنهم خرجوا ليتعقبوا قتلة عثمان فى البصرة ، وليستعينوا بصالحى البصرة وبقية أهل العراق ممن آسَفَهم قتل الخليفة ، على أولئك الذين ائتْمروا على حياته وخاضوا فى دَمِه . .

ولكن هنالك « دولة » على رأسها رجل مسئول لم تكن ذِمَّته ، ولا أمانته ، ولا ورعَه ، ولا شدَّته فى الحق حتى على نفسه . لم يكن ذلك كله موضع تساؤل أو اتهام منذ رأى نور الحياة وليداً إلى يومه هذا . .

أفلا تُترك الدولة وعلى رأسها حاكم هذا طرازه الرفيع الأمثل ، تُسوى هى ، ويسوى حاكمها مسألة عثمان . . ؟

وإذا وقف فريق من الأمة يطالب بدم عثمان ، وفريق آخر يَدْحض

ويقاوم هؤلاء المطالبين ، واشتبك الفريقان فى معارك مسلحة فأين الدولة آنئذ . . أتجلس فى شرفة الملعب لتتفرج على المذبحة . . ؟ وما مصير الإسلام كدين . . ؟ وما مصير المسلمين كأُمَّة . . ؟

دارت على ذلك كله خواطر « الخليفة » واتخذ قراره سريعاً فأمر موكبه الهادر من المدينة أن يلوى زمامه شطر البصرة . . وعندما شارفوا تخُومها نزلوا هناك بمكان يسمَّى « ذاقار » . .

* * *

وسرعان ما تحققت ظنونه وصدَق حَدْسه فإن موكب السيدة عائشة ، لم يكد يستقر فى البصرة . حتى وقع صدام مُرَوِّع بينه وبين حشود كبيرة من أهل البصرة أبوا أن يسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا فى مقتل عثمان .

إنها إذن الحرب الأهلية . التى حاذرها الإمام . .

وإنه وحده المسئول الأول والأخير عنها . .

أليس هو رئيس الدولة ؟ فإما أن يكون كفئاً لِفرض احترام القانون والدولة . . وإما أن يدع مكانه لآخر من الأكفاء . .

وليس هناك يومئذ أكفأ من أبى الحسن ، وإن العظائم كُفُؤُها العظماءُ ! !

* * *

لقد اعتاد « الإمام » دائماً أن يتصرف تصرُّف « القُدوَة » . . فهو فى كل حركاته ، وقراراته ، وأعماله يلتزم واجبات القدوة . .

إن كلماته ، وخطواته ، لتشكل طريقاً عاماً للأجيال المقبلة على

طول الزمن وعَرَضه ، ومن ثمَّ فإن الشعور بتبعات القدوة أكثر الأشياء إملاءً عليه ، وإيحاءً إليه ! !

في طفولته ، كان يسلك مسلك « القدوة » ، فلا يلعب لعب الأتراب ، ولا يلهو مع الصِّبية ! !

وفي شبابه ، كان يسلك مسلك « القدوة » . فقضاه شباباً طاهراً وحمَّله مسئوليات الرجال مُبكِّراً . .

وفي رجولته ، وخلافته ، أعطى كل عزمه وكل نفسه لما تتطلبه « القدوة » من تبتُّل وصمود ! !

وهو الآن وقد واجهته الفتن في مَوج كالجبال ، لن يلقاها بمسئوليات « الخليفة » فحسب . . بل سيلقاها قبل ذلك بمسئوليات « القدوة » ! !

أجل . . بمسئوليات « القُدوة » الذي ستصبح اتجاهاته وقراراته طريقاً عاماً ، وقانوناً عاماً لعصور مقبلة ، وأجيال وافِدة . .

ولن نجد في حياة « علي » بكل عظمتها وعطائها ، أروع ولا أجزل من مواقفه في تلك الفتن المظلمة الرهيبة التي واكَبَتْ خلافته من أول ساعة إلى أن لقي رَبَّه . .

هنا نلتقي بمُعلِّم كبير ، ليس من طرازه سواه . . « مُعلِّم » لم يكن يعنيه النصر على خصومه ، ولا تأمين خلافته وحكمه وسلطانه .

إنما كان يعنيه — لا غير — أن يعطي من حياته ومسلكه صورة مُشرِّفة لمسلم من الرَّعيل الأول ، سمع دَوِيّ الوحي ، وصلى وراء محمد . . ! !

أجل . . صورة مشرفة لمسلم ربّاه القرآن ، وقدوة صالحة لمواكب المسلمين القادمة مع الغيب القريب والبعيد . . ! !

هذا هو الذى كان يعنيه . . وبعد ذلك ، ليكن ما يكون . . نصر ، أم هزيمة . . خلافة ، أم عَزل . . حياة ، أم موت . .

لا شيء بعد القدوة الصالحة ، ترنو له النفس ، أوتحوِّم حوله الرغبة ! ! !

وهكذا نلتقى بـ« الخليفة » يتصرف تصرف « القدوة » . . الآن ، وكل آن . . اليوم ، وهو يواجه جيشاً تقوده « أم المؤمنين » و« الزبير » و« طلحة » وغداً ، وهو يواجه جيوش معاوية . . وبعد غد ، وهويواجه الخوارج . . ! !

* * *

عندما جاءته أنباء الصدام فى البصرة ، بعث إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته ، فلما وفدوا عليه ، زلزلوا الأفق بصياحهم ، وملأوه بسيوفهم المشرعة ، وراحوا يتعجلون « الإمام » ليواجه بهم جيش البصرة بقيادة طلحة والزبير . .

وهنا تجلَّت فطنة الإمام ونور بصيرته ، فلقد استبان من الحماس المشبوب لأهل الكوفة ، أنهم كانوا على وشَك أن يخرجوا بأنفسهم مسلحين إلى البصرة ، لينضموا إلى المقاومة المسلحة التى هبَّتْ هناك فى وجه طلحة والزبير . .

ذلك أنه إذا كان من أهل البصرة من اشترك فى الثورة على الخليفة الراحل « عثمان » ، فإن فى أهل الكوفة من اشترك أيضاً والآن وقد رأوا أنفسهم فى مَهبِّ العواصف ، فقد تنادَوا بالنصرة ، وتلاقوا على الحميَّة . .

فوضْعُ هذه القوات الثائرة تحت سلطة القانون والدولة كان عملاً حكيماً وحصيفاً . .

* * *

رأى « أمير المؤمنين » حماس أهل الكوفة ، فأراد أن يهديهم سواء السبيل ؛ وراح يعلمهم أن الحق يُدرَك بأسباب كثيرة آخرها امتشاق الحسام . . وأنهم إذا فرض عليهم أن يخوضوا قتالاً ، فلا بد أن يكون مشروعاً وعادلاً . . وهو لا يكون كذلك حتى يستفرغ الجهد فى إحقاق الحق عن طريق الإقناع والسلام . .

هنالك دعا – القعقاع بن عمرو– وأرسله بغصن الزيتون إلى أم المؤمنين ، وطلحة ، والزُّبير . .

وفى البصرة بدأ « القعقاع » بمحادثة « أم المؤمنين » ، ثم جاء « طلحة » و« الزبير » فعقدوا اجتماعاً طال فيه الحوار .

وندعُ « ابن كثير » المؤرخ الكبير ، ينقل إلينا بعض فقرات هذا الحوار ،

القعقاع : يا أم المؤمنين ، ما جاء بك إلى هذا البلد ؟

أم المؤمنين : الإصلاح بين الناس . .

القعقاع : وأنتما – طلحة والزبير– ما جاء بكما ؟

طلحة والزبير : الإصلاح بين الناس ؟

القعقاع : فأخبرونى كيف يكون هذا الإصلاح ؟

طلحة والزبير : يكون بالثأر لعثمان ، وقتل قاتليه . .

القعقاع : لقد قتلتما قتلَته من أهل البصرة ، وأنتما قبل قتلهم أصوب نهجاً منكم بعد قتلهم ؛ لأنكم قتلتم ستمائة ، فغضب لهم ستة آلاف .

وها أنتم أولاء تطلبون أحد القتلة وهو – حرقوص بن زهير – فلا تقدرون على إدراكه ؛ لأن ستة آلاف يشايعونه ويحمونه . . أفلا تعذرون – أمير المؤمنين علياًّ – إذا هو أخَّر قتل قتلة – عثمان – إلى أن يتمكن منهم ؟

إن الكلمة فى جميع أقطار الإسلام مختلفة ، وإن خَلقاً كثيرين من ربيعة ومُضَر ، قد تجمعوا ليشعلوها حرباً ضروساً . . !

أم المؤمنين : وما ترى ياقعقاع ؟

القعقاع : أرى أن تُؤْثِروا العافية ، وتُعطوا البيعة ، وأن تكونوا مفاتيح خير كما كنتم أولاً ، ولا تعرضونا للبلاء فتتعرضوا له ! !

وانتهى الحوار – كما يحدثنا ابن كثير – باقتناعهم بمنطق القعقاع ، واتفاقهم على أن يجىء الإمام علىّ إلى البصرة ليتم لقاء السَّلام .

* * *

عندما رجع « القعقاع » إلى « الخليفة » وأنبأه بما كان ، طار فؤاده فرحاً ، ولم يكن على وجه الأرض ساعتئذ أسعد منه ولا أهنأ . .

لقد حُفظت دماء المسلمين فلن تُراق . . وليس مثل ذلك شىء يفىء على روح « الإمام » السعادة والغبطة .

وخطبته التى ألقاها على جنده ساعتئذ ، تنقُل إلينا أفراح نفسه ، وحُبور ضميره . .

لقد راح يستعرض لهم الجاهلية بخصوماتها العاتية وحروبها الضارية حتى جاء الإسلام فألَّف بين القلوب ، وآخى بين البشَر ، وجعل الناس سواسيةً كأسنان المشط ، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

وذكَّرهم بتلك الوحدة الباهرة التى جمعت المسلمين من كل مكان تحت إمرة رسول الله صلى الله عليه وسلم . .

ثم تحت إمرة خليفته من بعده « أبى بكر الصديق » ثم تحت إمرة أمير المؤمنين « عمر » ثم تحت إمرة خليفة المسلمين « عثمان » وختم حديثه

قائلاً ، وكأنما كانت عيناه إذ ذاك على معاوية . .

[. . . . ثم حدث هذا الذى جرى
على الأمة . . أقوام طلبوا الدنيا
وأرادوا للإسلام أن يرجع القهقَرى . .
ولكن الله بالغُ أمره . .
« ألا إنى مُرْتحِلٌ غداً ، فارتحلوا
معى . .
« ولا يَرتحِلْ معى أحد أعان على
قتل عثمان ولو بشَطْر كَلِمة] ! !

إنه « الرجل القدوة » هو الذى يتحدث ، وإنه لَيتَّخِذ من الكلمات ومن المواقف ما يزيد الحق نفوذاً ، والعدل رسوخاً ، والفضيلة ازدهاراً . .

* * *

ورحل أمير المؤمنين إلى البصرة بمن معه من صحبه وجُنده . . وحطوا رحالهم هناك حيث أخذ كل فريق يتهيأ لإجراء الصلح . .

ولكن كانت هناك عيون لا تنام ، ومؤامرات لا تغفو . . والله وحده يعلم حقيقة القُوى المخبوءة التى حرَّضت تلك العيون ونسجت تلك المؤامرات ، وغيرت اتجاه الرياح !

التاريخ يحدثنا – فيما يُحدث – أن قتلة « عثمان » حزموا أمرهم على إفساد هذا الصلح ، معتقدين أنه سيتم على حساب رؤوسهم ودمائهم ، فهل كان ذلك كذلك فحسب . . ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها فى اشتعال النار هوًى ومصلحة . . ؟

إفساد هذا الصلح ، معتقدين أنه سيتم على حساب رؤوسهم ودمائهم ، فهل كان ذلك كذلك فحسب . . ؟ أو كانت هناك قوى غير منظورة لها فى اشتعال النار هوًى ومصلحة . . ؟

على أية حال ، فإن فجر اليـوم الذى ضُرب موعداً لبدء المصالحة لم يكد يبزغ حتى كان ألفا رجل من قتلة عثمان يقتحمون خيام جيش البصرة الذى يقوده طلحة والزبير ، ويعملون سيوفهم فيهم وهم نائمون . .

ونهض الجميع إلى سيوفهم . . ولم يكن هناك مجال لإزالة اللَّبْس وتفنيد المؤامرة ، ووقف الفتنة ، فقد ظن أهل البصرة أن حديث الصلح كان خُدعة .

وهكذا الْتقَى الجيشان فى موقعة « الجمل » على الرغم من كل ما حاول الإمام أن يُنقذ به السلام ! !

* * *

مضى القتال حامياً عنيداً . .

ومع كل رأس يميل ، أومعصم تُبتر ، أوساق تقطع . . بل مع كل قطرة دم تسيل ، كان قلب « الإمام » ينخلع ويذوب . .

لقد كان يُسْكِرُه الكرُّ والفرُّ فى صراعه مع المشركين .

أما اليوم ، والقاتل والمقتول أبناء دين واحد ؟ وهو الخليفة المسئول عن هذه الأمة بكل دمائها وأرواحها ، فَمن يُجيره من هذا الموقف؟ من يجيره ؟

* * *

لكنه حتى وهذه الأهوال كلها تحيط به ، لا يفقد شرف البطولة وعظمة النفس . . !

ففيم تقتتل هذه الألوف من المسلمين ؟

أليس بعضهم يقاتل من أجل « على » وبعضهم الآخر مع « طلحة والزبير » . . ؟

إذن ليبرز طلحة والزبير وعلى معاً . . حيث يسوُّون مع أنفسهم وحدها الحساب على أية صورة ، فيقف جريان تلك الدماء الغالية .

هنالك دفع جواده وسط صفوف الجيش المقاتل له ، ونادى :

– إلىَّ يا طلحة . . إلىَّ يا زبير ! !

وخرجا إليه . .

وتوسط الثلاثة الصفوف المتلاحمة كالطوفان .

وصاح فى « طلحة » صيحة احتشد فيها كل ما ورَّثه آباؤه من شرف ونخوة :

[يا طلحة . .
أخبأتَ عُرسَك فى البيت وجئت
بعُرس رسول الله تقاتل بها] . . ؟ ! !

وزأر الأسد زئيراً هزّ أرجاء الأفق ، وسقط المطر فجأة . . وكأنما هى دموع السماء هزّتها روعة الكلمات وأساها . . ! !

ثم التفتَ صوْب الزبير . .

[. . وأنت يا زُبير . .
أتذكر يوم –كذا– عندما رأيتنى
مُقبلاً على رسول لله فضحكت لى . .
فسألك الرسول : أتحبه يازبير ؟
فقلت : نعم . .
فقال لك ! أمـا إنك لَتقاتِلَنَّه
وانت له ظالم] . .

كانت الكلمات تحتشد فى فمه ثم تنفرج عنها ثناياه فى مثل ألَقِ الشمس وعنفوان القدَر .

وصاح « الزبير » .

[أَجَلْ . .

ولقد ذكّرتنى بما كنت قد نسيت] .

وألقى سيفه إلى الأرض ، وراح يختلج بين الصفوف ودموعه تبلّل الأرض أمامه

وعاد « على » إلى صفوف جنده . .

وغادر « طلحة » أرض القتال . . وغادرها « الزبير » . .

غادراها بعد أن سمعا من « الإمام » ما سمعا . .

وبعد أن علما أن « عمّار بن ياسر » يقاتل فى جبهة الإمام على .

وتذكَّرا ما كان الرسول قد قاله ذات يوم لعمار :

[تقتلُك الْفِئَةُ الباغية] ! !

بيد أن الأضغان المريبة لم تدعْهُما ليذهبا فى سلام .

فأما الزبير فقد تربصت به فى الطريق عصابة آثمة قتلته . . ! !

وأما طلحة ، فلم يكد – مروان بن الحكم – الأموى يعلم بعزمه على الانسحاب من القتال حتى تربص به ورماه بسهم أنهى حياته !

* * *

لم يبق لجيش البصرة من قائديه أحد . .

لقد ذهب عنه طلحة ، والزبير . . بل لقد ذهبا عن الدنيا كلها إلى ربهم الغفور الرحيم .

هنالك لم يجد الراغبون فى استمرار القتال سوى « أم المؤمنين » فى هودجها فوق ظهر الجمل الذى كانت تمتطية مشرفة على القتال . .

ورأى الإمام أن خُصومه قد اتخذوا من الجمل كعبة أحاطوا بها .

وبدا له أن نهاية المعركة ووقف الدماء المهراقة ، منوطان بنهاية هذا الجمل .

وأشير عليه ، أو أشار هو على نفسه أن يُرمى الجمل بسهم يجهز عليه . . وأوصى بعض أصحابه وجنده ، أن يكونوا على أقرب قرب مُستطاع من الجمل ، حتى إذا عُقر وسقط ، سارعوا هم إلى هودج السيدة عائشة فأحاطوه بأرواحهم ، وتلقَّوه قبل أن يسقط على الأرض فيصيبها سوء .

رجل . . وبطل . . وقدوة .

فماذا يُنتظر منه غير هذا الصنيع . . ؟ !

ونُفذت الخطة بنجاح . .

وانتهت المعركة ، ووقف القتال .

ودعا إليه « محمد بن أبى بكر » فأمره أن يصحب أخته أم المؤمنين عائشة إلى دار أعدت لاستقبالها ريثما تتهيأ لها وسائل العودة إلى مكة فالمدينة فى أمْن ، وإكرام ، وسلام .

ثم وقف « الإمام » بنفسه وسط جنده وأصحابه ليتلو عليهم قراره الجديد :

[لا تتَّبِعوا مواليا . .

ولا تُجْهِزوا على جريح . .

ولا تنتهبُـوا مالاً . .
ومَن ألقى سلاحه فهو آمن . .
ومن أغلَق بابه فهو آمن] . .

يقول المؤرخون[١] .

[فكان أتباع الإمام يمرون بالذهب
والفضة ، فلا يعرض لهما أحد] . .

لقد نفذوا أمر الإمام فى مرارة وضيق . أو هكذا كان شأن بعضهم على الأقل . . مما جعلهم يسألون الإمام :

— كيف حلَّ لنا قتالهم ، ولم يَحلَّ لنا سَبْيهم وأموالهم ؟

فأجابهم الإمام :

[ليس على الموحِّدين المؤمنين سَبْى . .
ولا يُغْنَم من أموالهم إلا ما قاتلوا به
وعليه] . .

كان « الخليفة » يعلم أن نهيه هذا سيؤلب ضدَّه بعض مؤيديه من ضعاف الوازع . . ولكن لينفضَّ عنه الناس أجمعون إذا كان إيثارُه الحقَّ سيظلُّ قصده وسبيله ! !

* * *

وانتهت هذه الجولة بانتصار أمير المؤمنين .

ولم يكن الانتصار العسكرى يمثل سوى الحظ الأدنى فى هذا الانتصار الكبير . . أما الحظ الأوفى فيه ، فكان انتصار حقه ، ومبادئه .

---

(١) الأخبار الطوال ، لأبى حنيفة الدينورى .

فانسحاب طلحة والزبير من القتال فى أوْج احتدامه ، جاء اعترافاً منهما بأن « عليًّا » مع الحق . .

ونَدمُ « أم المؤمنين » فيما بعد على الزجِّ بنفسها فى هذا الموقف يشكلُ اعترافاً بأن « عليًّا » على الحق .

وهذا هو النصر الأهمّ الذى ينشرح له صدر الإمام .

إن كل ما يرجوه ويطمع إليه ، أن يقف بجانب الحق ، وأن يفهم الناس عنه ذلك ، ليكونوا له عوناً على تقديس الحق .

وإن كل ما يرجوه ويطمع إليه أن يظلَّ أميناً على واجبات « القدوة » والتزاماتها . وأن يفهم الناس عنه ذلك أيضاً ، لينتفعوا بهذه القدوة فى تشكيل حياتهم .

ولقد واجه الموجة الأولى من موجات الفتنة الضارية بجأش البطل ، وأناة الحكيم ، ووَرَع القُدوَة .

لننظر هذا المشهد الأخير من مشاهد موقعة الجمل .

لقد كان يجلس فى داره بعد انفضاض المعركة ومعه أصحابه ، حين دخل عليه أحد أتباعه يقول :

– عمرو بن جرموز قاتل « الزبير » بالباب يستأذن فى الدخول . .

وأذن « الإمام » بدخوله . .

ودخل « القاتل » مَزهُوًّا فخوراً ، يظن أن الخليفة سَيَهشّ له ، ويستقبله استقبال الأبطال .

لكنه لم يكد يواجه الإمام حتى صرخ فى وجهه :

– أهذا الذى تحمله سيف الزبير . . ؟

قال وقد هزمت غروره صرخةُ الإمام .

– نعم هو . . سلَبتهُ منه بعد أن قتلتهُ ! !

فأخذه منه « الإمام » بيمينه . . ثم أمسكه بكلتا يديه ورفعه فى خشوع إلى فمه . . ثم قبَّله فى حنان وحُزن ، وقال ودموعه تسيل على وجنتيه :

[سَيفٌ طالما – واللهِ – فرَّج به
صاحبُه الكربَ عن رسول الله] ! !

ثم صوَّب إلى القاتل نظرات ملتهبة وقال له :

[أَما أنت ، فأبْشر يا قاتل ابنِ
صَفِيَّةَ بالنار] . .

وخرج « عمرو بن جرموز » يتعثر فى خِزيه ، وخيبة أمله ، ويقول :

« عجباً لكم . . نقتل أعداءكم ، وتبشروننا بالنار ! ! ! »

* * *

تلك عظمة ربيب الوحى ، وسابق المسلمين . . تلك عظمة الرجل ، والبطل . .

تلك عظمة الخليفة ، والقدوة ، وإنها لعظمة لن تكف عن توكيد ذاتها ، ما دام صاحبها حيًّا يُمارس العظائم ، ويصوغ المكرُمات . .

فإلى مشاهدَ أُخرى لنرى من أمرها عجباً .

* * *

تذكرون تلك الرسالة وذلك الرسول اللذين أرسلهما معاوية إلى أمير المؤمنين . .

الرسالة ورقة بيضاء فيها سطر واحد مكتوب هو :

= من معاوية بن أبي سفيان ، إلى على بن أبي طالب = هكذا « على بن أبي طالب » لا غير . . دون أى ذكر لِلقبه . . فلا خليفة المسلمين ، ولا أمير المؤمنين ! !

بل إن وَضعَ اسمه واسم أمير المؤمنين فى مقابلة كهذه تُومِئُ إلى التنابُز القبلى والجاهِلِىّ فى هذا الخطاب . .

فكأنه يقول له : أنا – ابن أبي سفيان – . . وأنت – ابن أبي طالب – وسننظر أى الابنين أعلى مقاماً ، وأشد ساعداً . . ! !

غفر الله لمعاوية : فما كان أغناه عن هذا الذى لجَّ فيه ، وتهالكَ عليه . .

لقد رفع فى الشام – كما قال رسوله لعلى – قميص عثمان حيث حشد تحته خمسين ألف مقاتل خاضبى لِحاهُم بدموع أعينهم ، رَافِعيه على أطراف الرماح ، قد عاهدوا الله ألا يَشيموا سيوفهم حتى يقتلوا قتلَةَ عثمان ، أو تلحق أرواحهم بالله . . ! !

فِيم كل هذا . . ؟ ولِمَهْ . . ؟

حقًّا إن قتل الخليفة الشهيد « عثمان » كان أبشع جريمة ارتكبت فى تاريخ المسلمين حتى ذلك اليوم .

ولا تتمثل الجريمة فى اغتيال الخليفة الشرعى ، فحسب ، وإن يك ذلك كافياً لدمغها بالجريمة وبالبشاعة . . إنما تتمثل أكثر وأكثر فى الطريقة التى تمَّ بها الاغتيال .

تلك جريمة لا مكان للحديث عنها الآن . . وقد نجد مكانها فى

كتابنا القادم إن شاء الله عن « عثمان » .

أما هنا . فحسبنا أن نسأل : فيم هذا الصُّراخ كله فى وجه « على » — أين دمُ عثمان . ؟

إننا لا نلوم ، بل نُحييِّ كل صوت صادق نزيه ارتفع مطالباً بدم عثمان !

وإن الطريقة التى اعتُدى بها على حياة الخليفة ، وعلى كرامة الدولة فى شخصه ، لتجعل الحجر الأصمَّ ينطق ويصيح ! اقتلوا قتلة عثمان . .

ولكن : هل كان نهج « معاوية » هو النهج الصحيح الأمثل لإنزال القصاص بأولئك القتَلة . ؟

أكان طريق القصاص ، أن يمتنع أولاً عن البيعة للخليفة الجديد الذى اختاره المهاجرون والأنصار فى المدينة ، ثم دخل المسلمون فى بيعته أفواجاً من كل الأمصار والأقطار . . ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يمتنع معاوية عن البيعة ويتمرد على الدولة فى تلك الظروف المزلزلة التى لا تتطلب شيئاً كما تتطلب رَأبَ الصَّدْع وجمع الكلمة . . ؟

أكان طريق الثأر لعثمان ، أن يطوف بقميصه بلاد الشام كلها ، غارساً فى قلوب الناس أن « عليًّا » هو الذى أعان على قتل « عثمان » بالأمس . . وهو الذى يؤْوِى قاتليه اليوم . .

أكانت آية ولائه وحبه لعثمان ، أن يجعل من قميصه المضمَّخ بدمه — راية — يبعث تحتها كل غرائز الجاهليـة ، ويدير تحتها أتعس حرب

أهلية تزلزل الإسلام وتُفنى المسلمين . ؟

مرة أخرى ، يغفر الله لمعاوية . . فما كان أغناه عن هذا المنزَلق الوَعر ، والهُوَّة الفاغِرة ! !

* * *

إن جميع المسلمين الراشدين وقفوا بعد مقتل الخليفة يطالبون باحترام دمه ، والقصاص له . .

إن ذلك كان يمثل أيضاً احترام الدولة والقصاص لحرمتها وهيبتها .

« الإمام على » نفسه ، كان يطالب بدم « عثمان » ولكنه وقد صار على رأس الدولة ؛ فإنه لم يعد مُجرَّد مطالب بالدم . . بل صار السُّلطة التى عليها أن تنزل القصاص .

ولما كان المشتركون فى قتل عثمان والمحرضون عليه ، ألوفاً ، وليسو عشرات ، أو آحاداً . ولما كانت فتنتهم المسلحة لا تزال قائمة ونامية . فضلاً عن المضاعفات الجديدة الخطيرة التى طرأت على الدولة ممثلة فى معركة الجمل ، وفى تمرد معاوية وأهل الشام – فإنه لم يكن ثمة فرصة لإنزال هذا القصاص إلا بإجادة التوقيت المحكم لفرض كلمة القانون وسط هذا الجو المضطرب وتلك الفوضى .

و « عبد الله بن عباس » ابن عم الإمام على . وأحد قواده فى حروبه كلها ، طالب أيضاً بدم عثمان ، بل قال فى ذلك كلمة تغنى عن كل مقال فى ذلك المجال .

قال رضى الله عنه :

[لو لم يطالب الناس بدم عثمان

لأمطرت السماء عليهم حجارة] ! !

ففيم إذن كل هذا الاتهام لأمير المؤمنين علىّ ، وفيم كل هذا التحريض على عصيانه وقتاله . ؟

ها هو ذا – معاوية – بالشام لا يضيع لحظة من وقته فى التجهيز لمعركة كبرى . هاهو ذا يُثير الجموع ضد الإمام ، فأين الإمام الآن ؟

انظروا . . ها هو ذا قد رحل عن البصرة ، وسار بأصحابه حتى نزل « الكوفة » .

لم تشغله المفاجآت الجديدة ولا الأخطار الماثلة عن فضائله ، فراح يمارسها بطريقته الفردية . .

بدأ ببيت المال فأخرج كل ما كان تحت سقفه من أموال ، وقسمها على مستحقيها . .

ويقترح عليه بعض مُرافقيه أن يستأنى فى الأمر وأن يستبقى من المال ما سيحتاج إليه ليتألف به رؤساء العشائر والجماعات ، فيرفض .

ثم يمعن فى غايته حتى إذا فرغ بيت المال ، يأمر الإمام أن تُنضح أرضه وتغسل بالماء . . حتى إذا تم ذلك ، قام فصلى فوق أرضه المغسولة ركعتين ! !

كانت هذه الصلاة فى بيت المال بعد نضح أرضه بالماء رمزاً لمعنى جليل .

كانت إيذاناً بعهد جديد تسيطر فيه الآخرة على الدنيا ، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأنفس والأفئدة جميعاً ! !

ثم دعى لينزل قصر الإمارة .. قصر كبير ترتفع هامته فى شموخ وفتنة – فلا يكاد يبصره حتى يُولِّى عنه مدبراً وهو يقول :

[قصر الخَبَالِ هـذا ، لا أسكنُه
أبداً] ! !

ويُلح عليه أهل الكوفة أن ينزل به ، فهو أرحب ، وأنسب ، فيُصر على رفضه ويقول :

« لا حاجة لى فيه : إن عمر بن
الخطاب كان يكرهه » . . .

ويمشى فى أسواق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين ، فيرشد الضال ويعين الضعيف ويلتقى بالشيخ المسِنِّ الكهْل ، فيحمل عنه حاجته ويتحرَّجَ أصحابه مما يروْن ، فيقتربون منه : يا أمير المؤمنين .

ولكنه لا يدعهم يُتمُّون حديثهم ، بل يتلو عليهم قول الله تعالى :

« تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهـــا
لِلَّذِين لاَ يُرِيدُونَ عُلُــوًّا فِى الْأَرْضِ ،
ولاَ فَسَاداً ، والْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » . .

ويشترى حاجات أهله وبيته ، ويحملها بيديه فإذا اقترب منه بعض مُرافقيه ليحملوها عنه أبى وقال وهو يبتسم لهم :

« أبو العِيال أحق بحمله » ! !

* * *

ويرتدى « الخليفة » جلباباً اشتراه من السوق بثلاثة دراهم . .

ويركب حماراً ، وقد تدلّت على جانبيه ساقاه ، وكأنه واحد من فقراء البادية . . ويعزم عليه أصحابه أن يجعل وسيلته للتنقل جواداً يليق بأمير المؤمنين . . فيجيبهم قائلاً :

« دعُونى أُهِنْ هذه الدنيا » ! !

* * *

أجل . . ذلك كان طريقه . أن يقهر كل إغراء الدنيا ومباذخ السلطان . وأن يعيش كما كان رسوله ومُعلمه يعيش . فى تواضع النبوة ، لا فى بهرجة الملك . . وفى انتظار الآخرة ، لا فى الرُّكون إلى الدنيا .

ولقد أحسن وصفه « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه حين قال :

« أزهَدُ الناس فى الدنيا على ابن أبى طالب » .

كما وصفه « الحسن البصرى » رضى الله عنه حين قال :

« رَحِمَ اللهَ عليًّا كان رهبانى هذه الأمة » .

* * *

رهبانى هذه الأمة ، مقيم هناك بالكوفة ، يعيش عيشة البسطاء الوُدعاء ، ويعبد ربه عبادة القديسين الأولياء ، ويحمل مسئوليات دولته وأمته فى مثل عزم الأنبياء . .

ولقد دخلت جميع الأقطار المسلمة فى بيعته ، عدا الشام ، فقد كانت بها دنيا هائلة من المؤمرات تتحرّك ضده ، وتتهيأ لفرض القتال عليه . . ! !

معاوية بالشام ، يحض الناس على سَبِّ الإمام وشَتْمه . .

والإمام بالكوفة ، ينهى فى حسمٍ وقوة عن شَتْم معاوية . ويقول لأصحابه :

[. . . قولوا : اللهم احقِنْ دماءنا
ودماءهم ، وأصْلحْ ذات بَيْننا
وبيْنهم] . . ! !

معاوية بالشام ، بين القصور الباذخة ، والمطاعم الرافهة ، والأموال التى تأتى بغير حساب ، وتُنفق فى خدمة طموحه بغير حساب .

و « علىٌّ » بالكوفة ، يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ، ويأكل الطعام الجَشِبَ اليابِس ، ويوزع أموال المسلمين على المسلمين فى عدالة لا تعرف المَيْل ، وفى ورع لا يعرف الهوى ! !

* * *

وأخذت وفود المسلمين تغدو وتروح بين الإمام فى العراق ، ومعاوية فى الشام .

منهم من يبحث عن الحق ليهتدى إليه ويقف إلى جانبه . .

ومنهم من يبحث عن المغنَم الأكثر ، والفرصة الأحسن .

كانت الشام تسخو بالأمانىّ والوعود كما كانت تسخو بالأموال والعطايا . .

وكان العراق يهتف بكلمة واحدة :

[مَنِ اهْتَدَى ، فإنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ

وَمَنْ ضَلَّ ، فإنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا]

وبعد هذا ، لا أمانىَّ ولا وعود . . لا رشوة . . ولا مغامرة بأموال الأمة – كما يفعل خُصومه – مهما تكن المخاطر والعواقب .

وحين يقترب من الإمام بعض أصحابه ، يرجونه أن يتألَّف ببعض المال هؤلاء الذين يستهويهم معاوية بأعطياته الغامرة ، يصيح بهم الإمام :

[أتأمروننى أن أطلب النصر بالجور] ؟

إيه يا تلميذ محمد ! !

إيه ياابن عم الرسول ! !

مَن سواك فى هذا المقام يستطيع أن يأخذ موقفك هذا ، ويقول كلماتك هذه ؟ !

ويقف – معاوية – وسط الوفود الزائرة ، يخطبهم تحت قميص عثمان ، فيتهم الإمام بالتحريض على قتله وإيواء قتلته . .

ويقف الإمام فى العراق يخطب الوفود الزائرة فيلخص القضية كلها فى كلمات تناهت فى الصدق والوضوح وعفة المقال :

[. أما بعد ، فإن الله بعَث نبيه صلى الله عليه وسلم ، فأنقذ به من الضلالة ، وحفظ به من الهلكة ، وجمع به بعد الفُرقة ، ثم قبضه الله إليه وقد أدَّى ما عليه . .

« ثم استخلف الناس أبا بكر . .

« ثم استخلف أبو بكر عمر . .

« ولقد أحْسَنَا السِّيرة ، وعدَلا فى الأمــة . .

« وقد وجَدْنا عليهما أَن تولّيا الأمر دوننا ونحن آل الرسول وأحق بالأمر . ولكنا غفرنا ذلك لهما . .

« ثم وَلِىَ أمرَ الناس عثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس عليه ، فسار إليه ناس فقتلوه ، ثم جاءنى الناس وأنا معتزل أمرهم ، فقالوا لى : بايِع ، فأبيتُ عليهم . .

« ثم عادوا فقالوا لى : بايع ؛ فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يفترق النــاس ، فبايَعْتُهم .

« فلم يَرُعْنِى إلا شِقاق رجلين قد بايعانى — يقصد طلحة والزبير —

« وخلافُ معاوية إيّاى . . هــذا الذى لم يجعل الله له سابقة فى الدين ، ولا سلَفَ صدْقٍ فى الإسلام . . طليق بن طليق . . دخلا فى الإسلام كارِهَيْن مُكْرَهَين .

– يعني معاوية وأبا سفيان –

« إني أدعوكم إلى كتاب الله ، وسُنَّة

نبيكم .

« أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي

ولكم] . . ! !

* * *

هذه هي القضية ، يعرضها الإمام في وضوح . .

فلقد أفْلتَ الزمام فعلاً من يد الخليفة الراحل عثمان ، بسبب ثقته المفرطة في بعض أقربائه من بني أُمَيَّة الذين لم يُحسنوا قط الارتفاع إلى مستوى مسئولياتهم كبطانة للخليفة ورُعاةٍ للأمة .

ولطالما نصحه الإمام وحذَّره العواقب . .

ولما وقعت الواقعة كان أكثر الناس همًّا وكرْباً . .

وراح يهتف ويصيح :

[اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان .

اللهم إني لم أقتُل ، ولم أُمالِئْ .

اللهم العن قتلة عثمان] .

* * *

ولكن أهل الشام ، ومعظمهم يومئذ من المسلمين الجُدد الذين لم يروا عليًّا ولا يعرفونه ، رانتْ على أفئدتهم دعوى معاوية . . ولم يجدوا هناكَ من ينبئهم بحقائق الأمور .

لم يجدوا مَن يقول لهم : إن قتل عثمان جريمة لا تصدر عن دين

« عَلِىٌّ » ولا عن خُلُقه . .

لم يجدوا من يقول لهم : إن « عليًّا » كان « مُحدَّد الإقامة » فى المدينة ، وإن الثوار جاءوا من بلاد شتَّى ونائية . . فمتى اجتمع بهم فى بلادهم ؟ ومتى أخرجهم منها للثورة . . ؟ ومتى حرَّضهم على القتل . . ؟

لم يجدوا من يقول لهم : إن « عليًّا » لم يكن يملك أية قوة يستطيع بها مواجهة عشرة آلاف ثائر ، رابطوا فى المدينة وحاصروها . .

وبرغم ذلك ، فقد استعان عليهم بمنطقه الأخَّاذ ، وحجته المقنعة حتى استجابوا لنُصحه بمغادرة المدينة والرجوع إلى بلادهم . ولقد غادروا المدينة فعلاً عائدين إلى أمصارهم ، لولا أن صادفوا فى الطريق رسولاً يحمل كتاباً زوَّره « مروان بن الحكم » على الخليفة ، ومَهره بخاتمه من غير أن يعلم . . وكان الكتاب أمراً بقتل زعماء الثوار جميعاً . . وكان – مروان – آنئذ بمثابة رئيس ديوان الخلافة ، فعاد الثوار إلى المدينة أشد غيظاً وعُدواناً !

أجل . . لم يجد أهل الشام مَن يقول لهم ذلك ، ولا مَن يقول لهم : إنه عندما أحكم الثوار الحصار حول دار « عثمان » ومنعوا عنه الماء ذهب « على » بنفسه يحمل قربة ماء على كاهله ، ولما حاولوا منعه صرخ فيهم قائلاً :

« والله إن الكفار من فارس والروم
لا يفعلون فعلكم . .
« إنهم لَيَـأسِرون أعـداءهم ،
فيطعمونهم ، ويسقونهم » . . ! !

وناوَشهم وناوشوه ، حتى سقطت عمامته على الأرض ، وهو لا يبالى إلا بأن يبلغ بالماء « عثمان » ولقد فعل وأوصل قربة الماء إليه . .

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن « الإمام » دعا ولديه وقُرَّة عينيه — الحسن والحسين — وأعطى كلا منهما سيفه ، وأمرهما أن يقفا حول سرير « الخليفة عثمان » وهو يرى الحصار الرهيب حول الدار ، ويدرك أنه يقدم ولديه للموت لا محالة . . ! !

لم يجدوا من يقول لهم : إنه عندما عاد « الحسن والحسين » يخبرانه بمقتل الخليفة فعل بهما ما لم يفعل بهما طوال حياته ، إذ عنفهما تعنيفاً شديداً ، وعجب لهما : كيف قُتل « عثمان » وهما لا يزالان يحملان رأسيهما على أكتافهما . .

« إذا لم تستطيعا أن تمنعا عنه ،
فكان عليكما أن تموتا دونه » . . ! !

لم يجد أهل الشام من يقول لهم : إن « علياً » كان يرى الأخطاء الجسيمة . . وكان يؤلمه ويفزعه تسامح الخليفة تجاهها . . ولكنه لم يكن ليرى اغتيال الخليفة — علاجاً أياً كان هذا الخليفة — فما بالكم والخليفة المقتول أخوه فى الله ، وزميله فى الغزوات والمشاهد ، مُجهِّز جيش العُسْرة بخالص ماله ، وصهره — عديلُه — إذ كان كل منهما — على وعثمان — زوجاً لبعض بنات رسول الله . . ! !

لم يجد أهل الشام من يقول لهم ذلك ، ولا شيئاً من ذلك .

لم يجدوا إلا « قميص عثمان » وكان بعض المسلمين قد حصل عليه ، وحمله إلى معاوية بالشام ، حيث رفعه عالياً ، وحشد تحته خمسين ألفاً

يلوِّحون بسيوفهم ورماحهم ، ويصيحون ! يا لَثاراتِ عثمان ! !

* * *

تُرى لو لم يتبوَّأ « على » منصب الخلافة ، أكان معاوية سيحمله دَمَ عثمان . . ؟

كلا . . وإنما كان سيتجه باتهامه إلى الخليفة الآخر ، إلا إذا كان ممن يرضى عنهم معاوية ويطمع فى طَيِّهم تحت جناحيه .

لقد كان معاوية من الذكاء بحيث أدرك مصيره مع « على » وقد أصبح خليفة للمسلمين .

من أجل هذا قرر أن يخوض معركة المصير . . مصيره هو . . لا مصير حق ضائع ، ولا مصير عدالة مغموطة ، ولا مصير دمٍ مطلول . . !

ومرة ثالثة ، يغفر الله لمعاوية ، فما كان ينبغى له أن يستخفَّ بمصاير الإسلام وبمقاديره إلى هذا المدى ، وإلى تلك الغاية . .

* * *

قلت لكم : إننا نؤرخ للعظمة الإنسانية فى نماذجها الباهرة .

وها أنتم أولاء تشاهدون عظمة « على » فى غمرة ذلك الصراع .

رأيتموها من غير أن أقول لكم : انظروها . . ! !

ورأيتم نضاله النبيل والمستميت ليدرأ الخطر عن حياة ، كان يراها حياته . . وعن مصير ، كان يراه مصيره . .

فلنتابع رؤية بعض مشاهد عظمته ، إن لم نستطع متابعتها جميعاً .

* * *

لقد كان يعرف حقيقة دوافع معاوية وحوافزه . . ولقد وصف هُتافه بدم عثمان وصفاً بليغاً وجامعاً فقال :

[كلمةُ حَقٍّ ، أُريدَ بها باطل] .

ومع علمه بتلك الدوافع المريبة ، لم يألُ جُهداً فى تجنيب المسلمين ويلات الحرب الأهلية ، فرضى وهو يعلم حقيقة دوافع معاوية أن يناقشه ويجرى معه حواراً طويلاً لعلَّه يثوب ويرجع .

أرسل إليه ينبئه أن دم عثمان لن يذهب هدراً ، وسيتم القصاص الذى تفرضه الشريعة فى وقته المعلوم . .

ذلك لأن مقتل الخليفة ، لم يتمثل فى تسلُّل اثنين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، حيث اغتالوه خفية وهربوا . . بل وقع الاعتداء على حياته وسط ثورة مُسلحة اشترك فيها عشرة آلاف ظلوا محتلين المدينة ومحاصريها أربعة أشهر ، لم يستطع معاوية خلالها أن يُرسل من جيشه الكبير المنظم فرقة أو فرقتين لتزجر الثوار ، وتنقذ الخليفة .

وهذه الآلاف العشرة من الثوار لا يزالون يحملون السلاح .

فكيف يقدر « الإمام » أن يمسك بهؤلاء جميعاً ليحاكمهم . . ومتى ؟ فى تلك الظروف التى مكنت للفوضى وللدمار شرَّ تمكين .

فهلاَّ أعطاه معاوية الفرصة ، فبايعه ووقف إلى جانبه بجيشه اللَّجب ليتمكن من انتزاع القتلة الحقيقيين من بين هذه الآلاف العشرة الذين كانوا يحمونهم ويمنعونهم ؟ !

لو فعل « معاوية » ذلك . . ثم قصَّر الإمام وأغمض عن القتلة عينيه ، لأدان ساعتئذ نفسه ، ولأدانه المسلمون . .

لكن معاوية ، لأمرٍ فى نفسه ، راح يرفض كل محاولة للتفاهم والصلح ، معلقاً على ذلك على تسليم قتلة « عثمان » . . وهو يعلم نبأ تلك الواقعة المشهورة . . عندما توسط بعض أهل الخير عند على ، لتسليم قتلة عثمان ، وبينما هم يتفاوضون معه إذا عشرة آلاف مقاتل يحاصرون المكان الذى كان الحديث يجرى فيه بين الإمام والوُسطاء .

وإذا هذه الآلاف العشرة تزلزل الأفق بصياحها (كلنا قتلة عثمان) ! !

عشرة آلاف — سيوفهم بأيديهم ، وحناجرهم تدمدم (كلنا قتلة عثمان) .

ثم يقول معاوية للإمام : لا صلح إلا بعد أن تسلمنى قتلة عثمان ! !

ولماذا يتسلَّم هو قتلة عثمان ؟

أهو وَلىُّ الدم . . ؟ كلا ، فأبناء عثمان أحق منه بهذه الولاية ؟

وحتى لو كان ولىَّ الدم ؛ أيظن نفسه لا يزال يعيش فى النظام القَبَلى ؛ يُقتل القتيل ، فتأخذ قبيلته الثأر أو الدية . . ؟

أَوَ لا يعلم — أمير الشام — أنه يعيش فى دولة عظمى ؛ وهى وحدها المسئولة عن فرض كلمة القانون . . ؟

الواضح أن « معاوية » بصياحه ذاك لم يكن يريد سوى إحراج الإمام وتأليب الثوار عليه . .

لم يَكفِه منهم أنهم قتلة عثمان . . فحاول أن يجعل منهم قتلة « على » أيضاً . . ! !

* * *

ولكن الرجل العظيم « علياً » سيظل يتصرف وفق فضائله . . وهاهوذا

ينشد السلام مرة أخرى ، بل مرات ومرات .

أرسل إلى معاوية « جرير بن عبد الله » بكتاب منه .

وسافر « جرير » إلى الشام ، واجتمع بمعاوية ، وبعض أصحابه حوله ، سأله معاوية : ما وراءك ؟

فقال جرير :

[لقد اجتمع لعلى أهل الحَرمين
– مكة والمدينة – وأهل المِصْرَين
– البصرة والكوفة – وأهل الحجاز
وأهل اليمن ، وأهل مصر ، وأهل
عمان ، وأهل البحرين واليمامة . .
« ولم يبق إلا أهل هذه الحصون
التى أنت فيها – الشام .
« لو سال عليها سيل من أوديته
لأغرقها . .
« وقد أتيتك أدعوك إلى ما يرشدك
ويهديك] . .

ودفع إليه كتاب الإمام ، فانظروا ماذا قال فى كتابه الرجل الذى ينشد السلام بكل طاقته وعزمه .

بسم الله الرحمن الرحيم

[أما بعد ، فإن بيعتى بالمدينة ،
لَزمتْك وأنت بالشام ، لأنه بايعنى

القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان فلم يكن للشاهد أن يختـار ، ولا للغائب أن يَرُدّ .. وإنما الشورَى للمهاجرين والأنصار فإذا اجتمعوا على رجل فسمَّوْه إماماً ، كان ذلك لله رضا .

« فإن خرج من أمرهم خارجٌ بطعن ، أو رغبة ، ردُّوه إلى ما خرج منه ، فإن أبَى قاتلوه على اتِّباعه غيرَ سبيل المؤمنين .

« وإن طلحة والزبير بايَعانى ، ثم نقضا بَيْعتى ، وكان نَقْضُها كردِّهما فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله .. فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، فإنَّ أحَبَّ الأمور إلىَّ فيك العافية ! !

« إلا أن تتعرض للبلاء ، فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت بالله عليك .

« وقد أكثرتَ فى قتلة عثمان فادخل فيما دخل فيه المسلمون ، ثم حاكِم

القوم إلىَّ أحمِلْك وإياهم كتاب الله .
أما تلك التى تريدها فخدعة الصبى
عن اللبن . . ! !
« ولَعمرى ، لئن نظرتَ بعقلك
دون هواك لتجدنِّى أبرأ النـــاس من
دم عثمان . .
« واعلم أنك من الطُّلَقاء الذين
لا يتبَّوءُون الخلافة ، ولا تُعرضَ
فيهم الشورَى .
« وقد أرسلتُ إليك وإلى مَن قِبلك
جرير بن عبد الله ، وهو من أهل
الإيمان والهجرة ، فبايع . . ولا قوة
إلا بالله] ! !

* * *

هذا هو كتاب الإمام ، كما ينقله لنا نصر بن مُزاحم فى كتابه « وقعة صِفِّين » .

فهل ثمةَ منطق أعدل ، وأمثل من هذا المنطق . .

لننظر قوله لمعاوية ؟

[إنَّ أحبَّ الأمور إلىَّ فيك العافية]

---

(١) الطلقاء هم كفار قريش الدين حلى رسول الله سبيلهم يوم فتح مكة قائلاً لهم « ادهبوا فأنتم الطلقاء » ثم أسلموا يومها ، وبعدها .

ولننظر قوله له :

[وأما قتلةُ عثمان ، فادخل فيما دخل فيه المسلمون – أى البيعة للإمام – ثم حاكم القوم إلىَّ ، أحملك وإياهم على كتاب الله] . . !

إن معاوية برغم تمرده ، ونكوصه عن البيعة ، وتأليبه الناس على الخليفة ، ودعوتهم لحربه .

معاوية ، برغم هذا كله ، يعرض عليه الإمام أن يكون « المدعى العام » فى قضية عثمان . . ! !

أفورَاء ذلك نَصَفَةٌ ومَعْدَلة . . ؟

أَو بعد ذلك تنازُل وتسامح . . ؟

لكن « معاوية » كان قد بيَّت الأمر مع معاونيه ، فكان رده على هذه الرسالة إمعاناً فى اتهام الخليفة بقتل عثمان ، وإيغالاً فى جمع الحشود المسلحة من أهل الشام تحت قميص عثمان . . !

كان بالمدينة جماعة من المهاجرين والأنصار آثروا الحياد . . وكان على رأسهم نفر من أئمة الصحابة أمثال عبد الله بن عمر . . وأسامة ابن زيد . . وسعد بن أبى وقاص . . ومحمد بن مسلمة . .

وعندما هَمَّ الإمام بالخروج إلى البصرة قبل موقعة الجمل التى إليها دعاهم للخروج معه . . فاعتذروا . . وكانت حجتهم أن الله أمرهم بقتال المشركين ، أما والقتال اليوم سيدور بين مُسلم ومسلم ، فإنهم فيه لا يشتركون .

وآلم هذا الموقف بعض أصحاب « على » فطلبوا منه أن يحملهم على الخروج معه بالقوة . لكنه أبى واحترم حيادهم وقال :

[دَعوهم ، وما اختاروا لأنفسهم] .

لم يكن امتناع هؤلاء الصفوة عن غَمْطٍ لحق « عَلِىّ » أو لفضله . . وإنما كان للسبب الذى قدمنا .

قال سعد بن أبى وقاص :

[أعطِنى سيفاً إن ضربتُ به المشرك قَطعَ ، وإن ضربتُ به المسلم رجعَ ، وأنا أُقاتل معك] . .

وقال عبد الله بن عمر :

[إنى عاهدت ربى ألا أقاتل من يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله] .

وقال أسامة بن زيد :

[والله يا أمير المؤمنين ، لو كُنتَ فى شِدْق الأسد ، لأحببتُ أن أكون معك فيه ، ولكنى لا أحب أن ألقى بسيفى مسلماً أبداً] . .

احترم الخليفة حياد إخوانه هؤلاء ، ولم يُحلْ بينهم وبين ما اختاروه لأنفسهم من مَسْلك ومُقام .

لكن « معاوية » فى الشام ، لم يكفه ما أعدَّ هناك من قوة ، فطمع

فى أن يكسب هؤلاء إلى صَفِّه ، وحسب أنهم قعدوا عن نصرة « الإمام » استرابةً منهم فى حقه أو فى سلامة قصده .

فأرسل إليهم رسله يغريهم بالوقوف بجانبه ، ويقول لهم : أنتم أحق بالخلافة من على . . ! !

أرسل إلى سعد ، وإلى عبد الله بن عمر ، وإلى محمد بن مَسلمة .

وسرعان ما تلقى « معاوية » منهم لطمات جعلته يندم على ما فعل .

أما « عبد الله بن عمر » فقد أرسل إليه يقول :

[أما بعد ، فإن الرأى الذى أطمعكَ فِىَّ ، هو الذى صَيَّرك إلى ما صيَّرك إليـه . .

« إنى ما تخلَّفت عن – على – لطعن منى عليه . فَلَعَمرى ما أنا كعَلىٍّ فى الايمان والهجرة ، ومكانه من رسول الله صلى الله عليـه وسـلم ونِكايَتِه بالمشركين . .

« ولكن حدث أمر لم يكن لى فيه من رسول الله عهد ، ففزعتُ فيه إلى الحيدة ، فاكففْ عنا نفسك] !

وأما سعد بن أبى وقاص » فقد ردَّ عليه قائلاً :

[. . وإن هـذا أمر قد كَرِهْنـا أوَّله ، وكَرهْنـا آخره . . وأمـا

طلحة والزبير ، فلو لزما بيوتهما لكان
خيراً لهما – واللهُ يغفر لأم المؤمنين
ما أتَتْ . . وما كنت لأقاتل علياًّ ،
وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه
وسلم يقول له أنت منى بمنزلة هارون
من موسى ، غير أنه لا نبي بعدى] .

وأما « محمد بن مسلمة » فقد كتب إلى معاوية يقول :

[. . وأما أنت ، فلَعمْرِى ما طلبتَ
إلا الدنيا ، ولا اتَّبعْتَ إلا الهوى .
فإن تَنْصُرْ عثمان مَيتاً ، فقد
خَذَلْتَهُ حياًّ . .
« ولئن كنتُ أبصرتُ فى الأمر
خلاف ما تريد ، فما خرجت بذلك
من نعمة ، ولا صِرْتُ إلى شك . .
« وإنى لأدْرَى بالصواب منك] . ! !

* * *

كان من الخير لمعاوية أن يفيق على أصوات هؤلاء الثلاثة الكبار من أصحاب رسول الله . . ولكنه أخفى رسائلهم هذه ومضى فى الطريق الذى اختار ، والذى رفع فوق ناصيته قميص عثمان ! !

* * *

أدرك « الإمام على » أن معاوية مَزْهُوٌّ بجيشه ، وبقوة أهل الشام

الملتفين حوله ، كما أنه لا يقدرُ قوة الإمام قدْرَها .

ورأى الإمام أنه إذا أنزل بمعاوية بعض بأسه ، وأراه بعض قوته ، فقد يحمله ذلك على الطاعة . .

ومن ثمَّ رأى أن يزحف إلى الشام ، ويُصبِّح معاوية بصيحة عابرة ، لكنها زاجرة . . ثم يستأنف الإمام بعدها دعوته إلى الصلح وإلى السلام . .

* * *

غادر الإمام معسكر النُّخَيْلة بالكوفة . . وغادر معاوية الشام والتقى الجمعان فى « صفِّين » .

وتُفاجئنا الساعات الأولى لهذا اللقاء بمشهد باهر من مشاهد « ابن أبى طالب » . . مشاهد عظمة نفسه وبطولة أخلاقه .

فعندما بلغ معاوية وجيشه « صِفِّين » شرقىَّ الفرات ، بادروا إلى الطريق الوحيد الذى يفضى إلى نهر الفرات فاحتلوه ، وأقاموا عليه عشرة آلاف حارس ، ليمنعوا جيش « الإمام » من الوصول إلى الماء ! ! ! !

ولما وصل « الإمام » بجيشه وعسكروا فى ذات المكان ، انطلق سقَّاءُوهم ليجيئوا لهم بالماء فوجدوا جيش الشام قد احتل الطريق كله .

وأرسل الإمام لمعاوية ، يذكره بشرف القتال . . ويدعوه أن يترك طريق الماء مفتوحاً أمام الظامئين . . لكن معاوية ومن أشاروا عليه رفضوا .

وقضى أصحاب « الإمام » يوماً وليلة بلا ماء . وجفَّت حلوقهم وأشرف الضعاف منهم على الموت .

وفى الصباح تحركت قوة من جيش أمير المؤمنين ، يقودها الأشعث ابن قيس ، والأشْتر ، فكنَست قوات معاوية كَنْساً من طريق الماء ، واحتلته كله . . وأصبح مفتوحاً أمام جيش الإمام ، ومغلقاً تماماً أمــام جيش معاوية . . ! !

ولْنُصغ لهذا الحوار الذى دار بين معاوية وعمرو بن العاص بعد طرد قواتهما عن طريق الماء :

عمرو : ما ظنك بالقوم اليوم – يا معاوية – إن منعوك الماء كما منعتهم بالأمس . . ؟ !

معاوية : دع عنك ما كان – يا عمرو – ولكن أتظن عليًّا يصنعها . . ؟

عمرو : ما أظن « عليًّا » يَسْتحِلُّ منك ما استحلَلْتَ منه ؛ فإنه لم يأت لِيُظْمِئك ، بل جاء لغير ذلك .

* * *

حَسبُ أمير المؤمنين ذلك الحوار يجرى بين خصومه .

حسبُه ذلك الرأى فى رجولته ، وعظمته ورفْعَةِ مَسْلَكِهِ من الذين يتهمونه بدم عثمان ! !

ولقد كان أول أمر أصدره « الخليفة على » فور احتلال قواته طريق الماء ألا يُذاد عنه ذاهب ، ولا يمنع عنه شارب . . وهكذا لم يذق جيش معاوية حرقة الظمأ لحظة واحدة . لأن « عليًّا » بعظمته وبرجولته كان هناك . . ! !

* * *

بعد هذه الزجرة الرادعة ، حاول الإمام أن يلوى زمام « معاوية » عن الحرب ، ويهيئ له فرصة كريمة للمصالحة ، فندب للقائه أربعة من رجاله توجهوا إلى معسكر معاوية ، وتحدثوا إليه قائلين له :

[إن صاحِبنا لمَنْ قد عرفْتَ وعرف المسلمون فضله ، ولا نظنه يخفى عليك « إن أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلى عليه السلام ، ولن يُفاضِلوا بينك وبينه ، فاتق الله يا معاوية ، ولا تخالف – عليًّا – فإننـا والله ما رأينا رجلاً قط أعملَ بالتقوى . ولا أزهدَ فى الدنيا : ولا أجمعَ لخصال الخير كلها منه] . .

أفلا يلين قلب معاوية بعد هذا كله . . ؟

انظروا ماذا كان جوابه :

[إن صاحبكم قتَل خليفتنا ، وفرَّق جماعتنا ، وآوَى ثأرنا وقتلَتنا . . « وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله . ونحن لا نردُّ ذلك عليه . فليدفع إلينا قتلة عثمان فنقتلهم به ، ونحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة] . .

عاد الوفد إلى الإمام ، يحملون إليه كلمات معاوية فتلقاها الإمام

فى أسًى . ثم تلا قول الله تعالى :

[فإنَّكَ لا تُسْمِعُ الموْتَى ، ولا تُسْمِعُ
الصُّمَّ الدُّعَاءَ إذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ .
« ومَا أنْتَ بِهَـادِى الْعُمْىِ عَنْ
ضَلاَلَتِهِمْ إنْ تُسْمِعُ إلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ
بِآياتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ] . .

وإذ كانوا يومئذ فى شهر المحرم ، وهو من الأشهر الحرُم التى لا يحلُّ فيها القتال ، فقد انتظر أمير المؤمنين حتى أهلَّ شهر صفر ، فاتخذ قراره بخوض القتال . .

وكان بعض المقاتلين معه يريد أن يدهَم جيش معاوية بقوات كثيرة تأخذهم على حين غفلة ، فأبى البطل ، والرجل .

وعند غروب شمس ذلك اليوم أمر جماعة من أصحابه أن يقفوا على معسكر معاوية ، وينادوا بأن القتال غداً . .

ودعا « مرثد بن الحارث » وأمره أن يعلُو أقرب رِبوة من معسكر معاوية ، ويسمعهم هذه الكلمات :

[يا أهل الشام . .
« إن أمير المؤمنين يقول لكم :
إنى قد استدَمْتُكم واستأنيْتُ بكم
لتراجعوا الحق وتُثيبوا إليه ، واحتجَجْتُ
عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه ،
فلم تتناهَوْا عن طغيان ، ولم تُجيبوا إلى حق .

« وإنّى قَدْ نَبَذْتُ إليكم على سواء ،
إن الله لا يُحب الخائنين] . ! !

أبى أَن يأخذهم على غرَّة ، وأن يوجه إليهم ضربة خاطفة ، كانت ستوفر كثيراً من الوقت والجهد فى كسب المعركة .

أبى ذلك ، لأنه كان يرجو ويطمع فى السلام إلى آخر لحظة ، فهو لهذا يرجو ويطمع إذا آذنهم بقتال أن يثوبوا إلى الرشد ، ويرجعوا عن العصيان .

وأَباه أَيضاً ، لأن أَخلاقه ترفض هذا النوع من الغلب والنصر مهما يكن سريعاً وحاسماً .

ولسوف نراه يمارس الصراع كله مع معاوية على هذا النسق من الخُلق الرفيع .

لا يتخلّى عن مُثله ولا عن دينه مهما تكن العواقب . .

ولم تكن جبهة خصومه مجتمعة ، بأقدر منه ذكاء وفطنة . لكنه رضى الله عنه ، رفض دائماً أن يضع الذكاء مكان الإخلاص والورَع .

ولقد أخبر وكان صادقاً ، بأنه إذا انتصر عليه معاوية ، فإنه لن ينتصر بمقدرته ولا بشجاعته ولا بذكائه . . إنما سينتصر بورَع الإمام نفسه . .

أجَلْ . . فإن ترفُّعه عن الوسائل التى يرفضها دينهُ وخلُقه ، هيّأ لمعاوية الكثير من أسباب انتصاره .

* * *

آذنهم « الإمام » بالقتال إذن ، على النحو الذى أسلفنا ، وعاد

يُعَبِّئُ قواته ، وأصدر إليها توجيهاته فى القتال .

[لا تقاتلوا القوم حتى يبدءُوكم ،
فإنكم بحمد الله على حُجَّة . .
« وتركُكُم إياهم حتى يبدءُوكم
حُجةٌ أخرى لكم عليهم . .
« فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم ، فلا تقتلوا
مُدْبراً ، ولا تجهزُوا على جريح ،
ولا تكشفوا عورة ، ولا تُمثِّلوا
بقتيل . .
« فإذا وصلتم إلى رحالهم ، فلا تهتكوا
ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ،
ولا تأخذوا من أموالهم شيئاً . .
« ولا تقربوا النساء بأذى . وإن
شتمنكُم وَشتمنَ أمراءكم وصُلحاءكم ،
« واذكُروا اللهَ كَثِيراً لعلَّكُم تُفْلِحُون]

* * *

والْتقى الجيشان فى وقعة صِفِّين . ودارت المعارك ضارية مُثيرة وطالت واستطالت حتى عجّت الأرض بالدماء ، وغطتها جثث الضحايا .

وجزع الإمام لكثرة الضحايا . . وفى سبيل أن يحسم الأمر ، ويصون الدم ، تقدم فوق جواده من صفوف معاوية وناداه ، ليخرج إليه فما خرج . . فلما فرغ من قتال ذلك اليوم كتب إليه كتاباً بعث به إليه :

[يا معاوية . .
« لِمَ تقتل الناس بينى وبينك ؟
ابْرُزْ إلىَّ ، فأيُّنا قتَل صاحبه تولَّى
الأمر من بعده] . .

واستشار معاوية صديقه « عمرو » فقال له :

– لقد أنصفك الرجل فابرز إليه .

فأغضبته مشورة « عمرو » ووجد فيها إحدى مكايده للتخلص منه ، لأنه يعلم أن « عليًّا » ما بارز أحداً إلا صرعه ! !

ولكى يبعد « عمرو » هذا الخاطر المزعج عن معاوية ، قال له :

– إنى خارج إلى « على » غداً ، فمُبارِزُه .

وفى اليوم التالى ، وقد تأهب كِلاَ الجيشين لاستئناف القتال ، وقف « عمرو » ونادى « الإمام عليًّا » لمبارزته . . وخرج الإمام إليه ، وتبارزا وهما فوق فرسيهما ، وبينما الإمام يهوى بسيفه على « عمرو » ليجلِّله به قذف بنفسه على الأرض ، وتمدَّد عليها فى استسلام ، وفزع ، وضراعة . . فألقى عليه « الإمام » نظرة الظافر الكريم ، ورجع عنه لم يصنع به شيئاً . .

* * *

ولو حفظ « عمرو » للإمام هذا الصنيع الجليل ، وتخلَّى عن شغفه البالغ بالإمارة ، لأخذت مسيرة الصراع وجهة أخرى . . لكنه لم يفعل ، وحين أنهك القتال جيش الشام ، وبات النصر مؤكداً لجيش الإمام . . وصار واضحاً أنه لم يبق سوى ساعة أو بعض ساعة ، ثم ينتهى إلى الأبد

تمرد معـاوية ومن معه . . عندئذ ، ومعاوية يقرع سِنّ نادم ، ويُحدِّق فى وجه « عمرو » يستجديه الرأى والحيلة ، فتح « ابن العاص » جعبته ليخرج منها جديداً . .

قال لمعاوية :

[لقد أعددتُ بحيلتى أمراً ادَّخرتُه
لهذا اليوم .
« ترفع المصاحف . وتدعو إلى تحكيم
القرآن . .
« فإن قبلوا التحكيم اختلفوا . . وإن
ردوه اختلفوا أيضاً] . !

أجل . . فإن التحكيم بهذه الطريقة وفى تلك الظروف ، لا يثير خلافاً فى صفوف المنهزمين ، لأنه – على الأقل – يعطيهم فرصة لجمع صفوفهم وبناء قوتهم من جديد . . أما بين المنتصرين الذين لا يفصل بينهم وبين النصر سوى ساعة زمان ، فإنه يثير اختلافاً كبيراً . .

وهذا هو الذى حدث تماماً . .

فما كادت طلائع معاوية ترفع المصاحف ، وتسير بها صَوبْ معسكر العراق ، حتى نَشب الخلاف .

لقد أدرك الإمام من فوره أنها خُدعة ، فحذر قومه منها . . لكنّ – الأشعث بن قيس – ونفراً من القرَّاء راحوا يقنعون الناس بضرورة الاحتكام إلى كتاب الله :

قال الإمام :

[أَنا أَحق مَن يجيب إلى كتاب الله ،
ولكنى أعرف بهم منكم . .
« إنها كلمة حق يُراد بها باطل . .
وإنى ما قاتلتُهم إلا ليدينوا بحكم
القرآن ، فكيف أرفُض اليوم حكمه . .؟
« إن القوم لم يرفعوا المصاحف لأنهم
يريدون حكم القرآن .
« إنما هى الخديعة ، والوهن والمكيدة
« فأعيرونى سواعدكم ساعة واحدة
فقد بلغ الحقُّ مقْطعَه] ! !

لكن المعارضة بلغت أوْجها فى سرعة مُريبة ، وتولّى « الأشعث » كِبْرَها . .

كان « الأشتر » بكتيبته وبقواته هناك على مقربة من معسكر الشام المتداعى . . وكان يستعد للصيحة الأخيرة عليه ، ولم يكن يفصل بينه وبينهم سوى [عَدْوَة فرَس] على حد تعبيره . . فطلب الأشعث ومَن معه من الإمام أن يُرسل لاستدعائه . . وأرسل الإمام يستدعيه ، فجنَّ جنون « الأشتر » وقال للرسول :

[ارجع وأنبئهم أنها لحظات ، وينتهى كل شىء ، فكيف أعود] ؟

ولم يكد يسمع أنصار التحكيم ردَّ « الأشتر » هذا حتى هدّدوا بعملٍ مُسلّح ضد الإمام نفسه إذا لم يعد « الأشتر » على الفور ! !

ماذا دهى هؤلاء فجأة . . ؟

وماذا دهى « الأشعث » خاصة ؟

هل أنهكته الحرب . . ؟

هل كان يعمل لحساب نفسه ، أم لحساب غيره ، وَفْق أغراضٍ بعيدة عن القضية التى يقاتل دُونها الإمام . . ؟

هل كان ينفس على « الأشتر » ويُضمر له فى نفسه الحسد ، فعزَّ عليه أن يكون بطل الضربة الأخيرة ، وطليعة الفتح ، وبشير النصر ؟

أو تُراه كان يرى أن الحرب لن تنتهى بهذه السرعة المظنونة . وأن الصلح المعروض فرصة لا ينبغى أن تُفلت . ؟ ؟

بعض ذلك جائز . . وكل ذلك جائز . . وعلى أية حال فقد فرضوا رأيهم بقبول التحكيم ، وعاد الأشتر تاركاً أبواب معسكر الشام التى كان يقف عليها متهيأ لإنزال الضربة الأخيرة بمن وراءها . . عاد يتضرَّم غيظاً وثورة ! !

* * *

كُتبت وثيقة التحكيم ، وأعلن معاوية أن ممثله فى التحكيم هو « عمرو بن العاص » . . ! !

فمن يُمثل جبهة الإمام . . ؟

هنا برز « الأشعث » وجماعة أخرى يقترحون « أبا موسى الأشعرى » وعارض الإمام . . مقترحاً « عبدالله بن عباس » .

لم يكن دين أبى موسى موضع شكٍّ لدَى « أمير المؤمنين على » برغم مآخذ يأخذها على موقفه من ذلك النزاع بينه وبين معاوية . . إنما كان الموقف فى تقدير الإمام يتطلب مندوباً يكون فى دهائه وسعة حيلته ، ويقظته ،

كفئاً للداهية عمرو بن العاص .

و « ابنُ عباس » كما يعرفه الناس جميعاً ، هو ذلك الكفء المطلوب .

إنه مع وَرَعه وتُقاه أبعد مَنالاً ، وأبعـدُ غَوْراً من كل ما لدى « ابن العاص » من حيلة ودهاء .

لكن الأشعث وجماعته أصرُّوا على « أبي موسى الأشعرى » . .

وحتى يتجنب « الإمام » وقوع الفتنة فى صفوفه – قبل رأيهم اليوم فى أمر المندوب ، كما قبله أمس فى أمر التحكيم . . ! !

* * *

وسارت الأمور سيرها المعروف . . فقد اتفق أبو موسى وعمرو بعد حوار طويل بينهما على أن يخلعا معاً ، الإمام ، ومعاوية ، ويعود الأمر شورى بين المسلمين يختارون هم إمامهم وخليفتهم .

ودعا « عمرو » أبا موسى لكىَ يبدأ الحديث . .

وبدأ « أبو موسى » وخلع عليًّا ، ومعاوية . .

ثم تلاه « عمرو » فقال : (إن أبا موسى خلع صاحبه كما رأيتم ، وإنى أخلعه كما خلَعه – وأُثبِتُ معاوية ، فهو أمير المؤمنين والمطالب بدم عثمان فبايعوه) . . ! ! !

وثار « أبو موسى » لهذه الخدعة المكشوفة ، وانتهى التحكيم بهذه المهزلة ، ليعود القتال ، من جديد ! !

---

(١) راجع للمؤلف : أبو موسى الأشعرى فى كتاب « رجال حول الرسول ».

ولكن ضدَّ مَن سيعود . . ؟

* * *

إن عظمة هذا الرجل – على بن أبى طالب – لعظمة فريدة . . لكأنما كان يُحركه من أعماقه ولعٌ شديد بأن يذهب عن الحياة – يوم يذهب – شهيد مُثُله ، ومبادئه ، وإيمانه . . شهيد استقامة المسلك ، واستقامة القصد ، واستقامة الضمير .

لقد واتته الفرصة لِدَحْض خدعة التحكيم قبل اجتماع الحكمين . .

وذلك حين راح الأشعث بن قيس . . يمرُّ على جماعات الجيش المبثوثة هناك تالياً عليها وثيقة التحكيم ، فإذا جماعة منها تلقاه بصياح النكير . . قائلة : [لقد أخطأنا بقبولنا التحكيم . وها نحن نرجع عن الخطأ ، لا حكم إلا لله] .

ولو تقدم الإمام فتبنَّى – مجرد التبنِّى – هذه المعارضة الجديدة للتحكيم ، لأمكن تغيير الاتجاه ، ولكنه قال عندما بلغه النبأ . .

[. . أوَ بَعدَ أن أَعطينا العهد
والميثاق . . ؟ !]

لك الله أبا الحسن ! !

أتُراك قد كتب عليك أن تقاتل بشرف ، فى معركة كان الشرف عنها غائباً ، وفيها غريباً . . ؟ !

رفض أن ينقض ميثاقاً أعطاه . . والغدر يحيط به من كل جانب . .

وجاءت خاتمة التحكيم كما أراد لها وكما تنبأ بها عمرو بن العاص . .

فقد مزّق الخلاف أصحاب الإمام . وفى سرعة غريبة أيضاً تحولوا

إلى شيع يقاتل بعضها بعضاً . . بل تقاتل الإمام نفسه وتواجهه بألأم عصيان ! !

* * *

وقف الإمام وسط البقية من أصحابه الذين لم يفتنوا عن الولاء للحق .

لم يكن لديه وقت للعتاب ، ولا لاجترار الندم . إنما كان الوقت كله – إن كان هناك وقت – والفرصة كلها . . إن كان ثمة فرصة . . لتعبئة أصحابه والسير إلى الشام .

مع مَنْ تمضى إلى الشام يا أمير المؤمنين . . ؟

ولماذا . . ؟

مع المؤمنين بالحق وإن قَلُّوا . . لإتمام الجهاد الذى بدأه فى سبيل الحق ذاته . !

إنه صارم فى تحمل مسئولياته . . وإنه حين خاض القتال الذى فرضه عليه الجانب الآخر لم يَخضْهُ لينتصر فى حرب ، أو لِيدْعَمَ مكانه فى الخلافة ، إنما خاضه لأن مسئولياته فرضت عليه أن يخوضه . . ولما فرض أصحابه عليه قبول التحكيم ، كفّ عن القتال . . ولما فشل التحكيم وتحول إلى خدعة وضلالة ، فإن مسئولياته تفرض عليه القتال من جديد .

صحيح أن الموقف تغير تغيراً شاملاً ، ففريق كبيرٌ من أصحابه انقلب عليه وحمل السيف ضده بحجة أنه قبل التحكيم . . ؟ التحكيم الذى فرضوه هم عليه فرضاً . . ! !

وفريق آخر ، اعتزل وتقاعس عن القتال . .

لكن ذلك كله وأضعافه معه لا يهن من عزم الإمام . . ذلك لأنه يعتقد أنه يقاتل فى معركة حق .

وما كانت معارك الحق قط معارك كثرة وأعداد . .

إن عليه أن يمضى مع مسئولياته ، حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وهكذا عبأ قواته ، وبدأ مسيرته إلى الشام ، بيد أنه لم يكد يتحرك مسافراً حتى جاءته الأنباء مثيرة مُزعجة . .

أنباء الخوارج الذين انطلقوا هائمين فى البلاد والقرى يقتلون كل مَن يُخالفهم الرأى .

إنهم يلقون الواحد من المسلمين فيسألونه :

– ألم يكن قبول التحكيم كفراً . . ؟

– ألم يأثم « على » بقبول التحكيم . . ؟

– ألسنا فى حل من طاعته وبيعته حتى يقر بإثمه ويتوب منه . . ؟

فإذا أجاب المسئول بـ « نعم » تركوه ينجو . . وإن أجاب بـ « لا » سفكوا دمه وأزهقوا حياته . . ! !

جاءت أخبارهم إلى الإمام . وأرسل الناس من كل مكان يستغيثون به . ويتوسلون إليه ألا يذهب إلى الشام قبل أن يؤمنهم من هذا الوباء الماحق الذى استشرى فجأة وبغير حساب . . ! !

أيعرف الناس فى التاريخ محنة مرَّت ببطل ، مثل هذه المحنة . .

لكن أبو حَسنٍ لها . . ولن يتخلَّى عن واجبه وإن بُدلت الأرض غير الأرض . وإن تحوَّلت رمال الصحراء إلى جيوش تقاتله ، وإن

تحوَّلت بحار الأرض إلى لهب ، ونار . . ! !

لتذهب عنه كل الألقاب والأوصاف – الخليفة . . والإمام . . . ، الداهية . . والمنتصر . . ولْيبْقَ له ومعه لقب واحد ووصف واحد هو : المؤمن . . ! !

إن الحياة فى يقينه قضية إيمان . فمن خسر إيمانه خسر حياته ، وإن عاش فيها ألف عام . . ومَنْ ربح إيمانه ربح حياته ، وإن عاش فيها بضعة أعوام . . ! !

وهو اليوم – وليس حوله سوى المهالك والأخطار – غير نادم على خطوة خطاها .

لقد اقترب منه ابنه « الحسَن » رضى الله عنه ، يقول له فى نبرة عتــاب :

[يا أبى . .

* « أشرْتُ عليك حين حُوصرَ عثمان
أن تخرج من المدينة :
فإن قُتِل قُتِل وأنت غائب عنها .
* « وأشرْتُ عليك حين قُتل عثمان
وراح الناس إليك وغَدَوْا ، وسألوك
أن تقوم بالأمر ألا تقبله حتى
تأتيك البيعة من جميع الآفاق . .
* « وأشرتُ عليك حين بلغك خروج
الزبير وطلحة بأم المؤمنين عائشة

إلى البصرة أن ترجع إلى المدينة
وتقيم فى بيتك . .
« فلم تقبل رأيى فى شىء من
ذلك] . .

* * *

كان الحسن قلقاً من أجل أبيه . . فراح يراجع مع الماضى الحساب . .

ولكن « أَباه » كان مطمئن النفس ، قرير العين بما كان وبما سيكون ، لأنه لم يكن فى رحلة حياته كلها عبد هوًى ، ولا طالب مَجد . بل كان جنديًّا فى معركة الولاء للحق . .

هنالك أجاب ابنه « الحسن » قائلاً :

* « أمّا خروجى حين حُوصِر عثمان ،
فما كان ذلك ممكناً ، فقد
كان الناس أحاطوا بى ، كما
أَحاطوا بعثمان . .

* « وأما انتظارى طاعةَ جميع الناس
من جميع الآفاق ، فإن البيعة
لا تكون إلا لمن حَضَر الحرَمين
من المهاجرين والأنصار ، فإذا
رضوا وبايعوا حقَّ على جميع
المسلمين الرضا والبيعة . .

* « وأما رجوعي إلى بيتي والقعود فيه
فإنني لو قبلت لكان ذلك غدراً
بالأمة وخيانة لها . . »

هذه هي مواقفه – واضحة مسْفرة . .
وهذه هي بواعثه – نظيفة طاهرة . .
لا يأْسَى على وقفته مع حق ، قصَّرت عن إدراكه الأسباب . .
ولا يَجزع من قَدَرٍ ، سبقَ به الكتاب . . ! !

* * *

وخِلال حياته بصفة عامة . .

ثم خلال هذا الصراع وهذه الفِتن ، بصفة خاصة ، حرص البطل دوماً على تحرى الصواب ، والسير تحت راية الحق .

أجل . . الصَّواب كان هِوايته ، وكان طريقه . .

الصَّواب جميعُه – صواب الفكر ، وصواب الشعور ، وصواب الإرادة ، وصواب العمل .

وحتى إذا أخطأ اجتهاده فى أمر ما ، فإن خطأه هذا لا يجيء انعكاساً لرغبة فى الاستعلاء على الحق أو تحديه . . ولا لتقصير منه فى نُشدان الصواب وتحريه . .

إنما يكون بسبب مبالغته فى الولاء للصواب ، وللحق . . وبسبب مغالبته الظروف العسيرة المظلمة التى كتب عليه أن يستردَّ من خِلالها حقيقة الإسلام ، ووحدة المسلمين . .

الفصل الخامس

الرّاحِلُ والمقِيمُ

[أتركُهم لدنياهم وأختار الله ،
ورسوله]

« على »

ضاعت الفُرص من نفسها ، وما ضاعت من عَليّ . .

ضاعت من الدولة المسلمة الراشدة التي كان الإمام يريد أن يعيدها إلى جادَّتها ، ويمضي بها على صراطها الأول القويم .

ضاعت من مقادير الإسلام التي كادت تصبح على موعد مع خليفة آخر من طراز « عمر » في صرامته ، وعدله . . في استقامته وورعه . . في ترفعه ، وتواضُعه ، وزهده . .

والخليفة المتقشف الذي تُجْبىَ إليه الأموال حلالاً طيبة من أقطار الأرض ، ثم هو يلبس قميصاً بثلاثة دراهم ! !

الخطيبُ الذي تهتز الدنيا لكلماته ، وهي تخرج من وراء شفتيه ناضرة قاهرة ! !

الفقيهُ العالم الذي تتفجر الحكمة من نفسه ، وعقله . ويجري الحق على لسانه وقلبه ! !

العابدُ ، الوَرِعُ ، التقيُّ ، الذي تفوَّق على إغراء الدنيا ، وأطماع البشر ! !

تلميذُ « الرسولِ » الأوَّلُ ، والأمْثل ! !

ربيب الوحى ، وسابق المسلمين ! !

كل هذا فى طريقه الآن إلى الرحيل . . ليحتلَّ مكانه مُلك عَضُوض .
يقوم إيوانه وعرْشه فى الشام ، حيث ترتفع رايات الزّهو والأنانية . .
وحيث تدق طبول المجد الفارغ والطموح المتألِّى . !

* * *

الآن تقترب الأمور من نهاياتها . .

ويقف « البطل » بين فتنتين عارمتين . .

أولاهما : فى الشام تصيح : (يا لثارَات عثمان) ! !

وثانيتهما : فى العراق تصيح : (لا حكْمَ إلا لله) ! !

ولئن كانت الأولى ، أعتى وأوسع ، فإن الثانية أمَضُّ وأوجع .
ذلك أن ذويها ومشعِليها الذين كانوا بالأمس لا غير ، أتباعه وجنده . . وهم
الذين أصروا أوأصرَّ أكثرهم على قبول التحكيم حين كان يحذرهم منه
ويدعوهم إلى رفضه .

وهم الذين أصرُّوا ، أوأصرَّ أكثرهم على اختيار « أبى موسى الأشعرى »
حين كان هو يدعوهم فى إلحاح إلى اختيار « عبد الله بن عباس » لأنه
القادر على فَلِّ دهاء « عمرو » ودَحض مناوراته . .

هم أولئك بالأمس . . هؤلاء الذين يحملون السلاح اليوم ليحكموا
به وفق هواهم ، وهم الذين ينشرون الذعر والرعب والفزع فى أفئدة
الآمنين ، وهم – أخيراً – الذين يضطرونه ليحمل السلاح فى وجوههم . . !

لقد حاول أن يصابرهم ، ويحملهم بمنطقه على الرُّجعَى . ولكن

الفتنة والضلال كانا قد أحكما الخناق على عقولهم وألبْابهم . .

ولقد فقد الإمام كل أمل فى هدايتهم حين بلغه نبأ مقتل عبد الله ابن خبّاب وزوجه ، والطريقة التى قتلوهما بها . .

إن « عبد الله » ابن صحابى جليل . . كان إسلامه ، وكانت حياته روعة وبهاء . . هو – خبَّاب بن الأرتّ [١]

ولقد لقيه « الخوارج » هو وزوجته فى طريق سفرهما ، فاعتقلوهما وسألوا « عبد الله » أن يحدثهم ببعض ما سمعه من أبيه من أحاديث رسول الله فقال لهم :

[سمعت أبى يقول : سمعتْ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من السَّاعى] .

وسألوه عن « الإمام على » فقال : فيه خيراً ، فاقتادوه وزوجته .

والآن ، لننظر هذه المفارقة المضحكة والمفجعة . .

فبينما هم ماضون بهما ، سقطت ثمرة من نخلة ، فتلقاها أحد الخوارج بفمه . وقبل أن يمضغها صاح به زميل له : كيف تستحلها بغير إذن من صاحب النخلة ، وقبل أن تدفع ثمنها ؟ فألقاها من فمه وراح يندم ويستغفر . . !

وبعد خطوات فى سيرهما – تقدموا من « عبد الله بن خبّاب » فذبحوه . !

---

(١) راجع « خبّاب بن الأرت » فى « رجال حول الرسول » .

ثم التفتوا بوحشيتهم صوب زوجته ، فصاحت من الفزع : (إنى حُبْلَى ، فاتقوا الله فىَّ) .

ولكنهم ذبحوها هى الأخرى ، وبقروا بطنها عن جنينها . . ؟

أولئك من الذين كانوا يقاتلون مع الإمام بالأمس . . قد علم الله ما فى قلوبهم ؛ فطهَّره من صُحبتهم تطهيراً . . !

لم يكد مقتل « عبد الله بن خبَّاب » يبلغ مسامع الإمام حتى تراءى أمامه مصير الأبرياء لو تُرك هؤلاء الهائمون المتوحشون يعيثون فى أرض الناس فساداً ، فلوَى زمام جيشه عن الشام إلى النهروان ، حيث لقى الخوارج فى معركة فاصلة أباد فيها جَمعهم ، وشتّت شملهم ، وطوّح رءُوس قادتهم وزعمائهم .

* * *

أفما آن له أن يستريح . . ؟

ألا ينفض يديه من ذلك الظلام ، ويخرج من تلك المتاهات إلى حيث يعبد الله بقلبه السليم ، وينفع المسلمين بعلمه العميم ؟

ربمُا كان ذلك بعض أمانيه . . ولكنها مسئولياته وتبعاته . . ؟ مَنْ يحملها سواه . ! إنها فوق كاهله . . لن يضعها عنه سوى المـــوت . . فأين هو ! ومتى يجىء ؟ !

إنه ليَحُس أن قد آنَ أوانه . .

فإن أهل الكوفة الذين دعاهم إلى السير معه صَوْب الشام للقاء معاوية ، فقد تقاَعسوا وراحوا يتسلّلون الواحد بعد الآخر من معسكرهم

بالنُّخَيْلة . . حتى تلفَّت الإمام ذات صباح فلم يجد حوله منهم سوى ألف لا يزيدون ! !

انتهى دوره إذن . . ففيم البقاء ؟

لقد كانت حياته فى دورها الأخير هذا وقفاً على قضية كبرى . . أن يُعيد للإسلام حقيقته ، وللمسلمين وَحدتهم ، وللدولة الإسلامية تماسكها ، وشِرْعتها ، واستقامتها . .

أجَلْ . . كانت القضية التى نذرَ لها حياته هى : أن يَرُدَّ الإسلام إلى حقيقته . . وأن يردّ المسلمين إلى الإسلام . . !

ولم يترك سِلماً ، ولا حَرباً ، يبلُغان به غايته النبيلة هذه إلا توسَّل بهما فى عدالة ، وشرف .

ولقد كانت قضيتُه واضحة المحَيَّا ، مُشرقة الجبين . . ناصعة الحجّة ، طاهرة الضَّمير .

وإن عظمتها لتتجلَّى عندما جاء ذلك اليوم الذى وقف فيه « معاوية » يأخذ البيعة بحدِّ السيف لابنه « يزيد » !

يَزيد . . ؟ ؟

نعوذ بكلمات الله التامَّات من شرِّ ماخَلق . . ! !

إنه لو كان يأخذها لواحد من صُلحاء بنى أُمية وفضُلائهم ، ما جاز له حمل المسلمين عليها بالرهبة والقوة . فكيف وهى لـ « يزيد » يَزيد . وكفَى ؟ !

لقد كشف هذا العمل من معاوية عن أحد وجوه القضية الجليلة التى كان الإمام يقاتل دونها .

هذا الوجه المتمثِّل فى ألا تصير خلافة المسلمين إلى طُلقاء بنى أمية أبداً . . وأن تظلَّ فى الصالحين الأوَّلين من المهاجرين والأنصار .

أجَلْ . . يومئذ تكشّف هذا الوجْه من القضية الكبرى التى نذر البطل لها حياته ، فألقى ضوءه على وجوه القضية كلها . .

ولم يبق من المسلمين أحد ، إلا بحّ صوته ترحُّماً على الإمام « على » . .

ووقف واحد من كبار الصحابة يومها يقول :

« ما أجدنى آسى على شيء فاتنى فى
حياتى ، إلا على أنى لم أقاتل مع
« عَلِىّ » الفئة الباغية » . .

أجل . . قال ذلك والدموع تبلل لحيته ، الصحابى الجليل ، الطيب ابنُ الطيب « عبد الله بن عمر » ! !

* * *

وأحسَّ المسلمون فى كل مكان . . وفى العراق خاصة أنهم ضالعون فى الإثم ، شركاء فى الوزر ، يوم تخلَّوا عن « البطل » وتركوه وحده فى الفضاء المُوحِش بين الوحوش والذئاب ! !

وراحوا يبكون ، ويُولْوِلُون . .

لقد أحسُّوا فجأة بالفراغ القاتل الذى خلَّفه لهم غياب أبيهم الحنون ، الطيب ، العادل ، الرحيم .

وراحوا يترحَّمون عليه من كل أفئدتهم الصادعة الضارعة . .

أقول : يترحمون .

أجَلْ ، فقد نسيت أن أقول لكم : إنه مات . . قُتِل غيلة . . استشهد

البطل والخليفة والإمام . . وهو يقترب من باب مسجد الكوفة ، وقيل : بل وهو يصلى ، أو يتهيأ للصلاة – بعد أن عبر شوارعها يوقظ أهلها لصلاة الفجر . . ويناديهم بصوته الجليل :

[الصلاة ، أيها الناس ، الصلاة ،
يرحمكُم الله]

اقترب منه فى لجُة الظلام واحد من الخوارج اسمه – عبد الرحمن ابن مُلْجم – كان قد ائتمر مع اثنين آخرين ليتخلصوا من الامِام بالعراق ، ومن « معاوية » بالشام . ومن « عمرو بن العاص » بمصر .

كان « الإمام » بلاَ حَرس . .

فكان اغتياله عملاً من أيسر الأعمال .

لم تكن الجريمة تتطلب أى جلَد ، أوقوة ، أو بطولة . .

كانت تتطلب – لا غير – ضميراً ميِّتاً ، وتفكيراً ضالاً ، وقلباً أعمى ، وإرادة ممسوخة . . ! !

فلما وجدت هذه جميعاً ، فى صورة آدمى ، وسُلِّحت بسيف مسموم . وقيل لها : اطعنى هذا الهُدى وهدا الجلال . . تمَّ كل شىء فى لحظات ! !

وحققت الأقدار للبطل أمنيته الأخيرة .

فقبل استشهاده بأيام ، نادى أهل الكوفة من كتاب كتبه ، ووقف أحد أصحابه يتلوه عليهم بعد صلاة الجمعة :

[. . . أما والله لَوَددْتُ أن الله أخرجنى
من بين أظهُركم ، وقبضنى إلى رحمته
من بينكم . .

« وَلودِدْتُ أنى لم أرَكُم ولم أعرفْكم . .
« فقد والله ملأْتُم صدرى غيظاً ،
وجرَّعْتُمونى الأمـرَّين أنفاسـاً ،
وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخذلان..
حتى قالت قريش : إن ابن أبى طالب
رجل شجاع ، ولكنْ لا علمَ له
بالحرب ، لله أبوهم ! ! هل كان
فيهم رجل أشدَّ لها مِراساً ، وأطولَ
مقاساةً منِّى ؟ ؟
« لقد نهضْتُ فيها وما بلغت العشرين
« وها أنذا اليوم قد عَدوْتُ الستِّين . .
« ولكن ، لا رأىَ لمن لا يُطاع] . . ! !

أجَلْ : يا أمير المؤمنين ، لا رأى لمن لا يطاع . .

ولقد سارع القدر إلى رجائك ، فأخرجك الله من بين أظهرهم ، وقبضك إلى رحمته تقياً . . نقياً . . باراً . .

ولقد حملك إلى الرفيق الأعلى ، زورقُك الآمِن الوديع الذى طالما قهرت به أمواج الفتن حتى اجتزْتها جميعاً فى سلام . .

زوْرَقُك الذى لذْت به طوال حياتك ، وكنت أشدَّ به التياذاً وأوثق رحماً ، كلما ذكرت الحوار الذى دار بين الرسول وبينك ذات يوم بعيد .

يوم سألك – يا أمير المؤمنين – قائلاً :

[يا على . .

« كيف أنت إذا زهد الناس في

الآخرة ، ورغبوا فى الدنيا ، وأكلوا

التُّراثَ أكلاً لمّاً . . وأحَبُّوا المال

حُباً جمّاً . . واتخذوا دين الله دَغلاً

ومالوا دُوَلا . .] ؟

فأجبته – يا أمير المؤمنين – قا ئلاً :

[إذن . أتركهم لدنياهم ، وأذَرُهم

وما اخْتاروا . . وأختـــــارُ الله ،

ورسوله ، والدار الآخرة . . وأصبر

على ذلك حتى ألحق بكم] . . !

لقد اخترتَ – يا أبا الحسن – فأحسنت الاختيار . .

واصْطَبَرْت – يا أبا الحُسَيْنْ – فأحسنت الاصطبار . .

ولحقتَ بمن تُحب من المرسلين ، والشهداء ، والأبرار ! !

* * *

لقى الإمام ربه – أخيراً – مصاباً بضربة سيف مسموم . . كما لقيه من قبل عمر الفاروق ، مصاباً بضربة خنجر محموم ! !

وتأبى عظمة البطل إلا أن يكون آخر مشهد فى حياته جديراً بها أكثر ما تكون الجدارة ، ودالا على حقيقته أصدق ما تكون الدلالة . . !

فإنه لم يكد يتلقى ضربة القدر فى رأسه ، حتى حُمل إلى داره . .

وإذ هو فى لحظات الكارثة هذه ، يأمر حامليه والحافّين حوله أن يذهبوا إلى المسجد ؛ ليدركوا صلاة الفجر قبل أن تُؤذِن بفوات . . هذه الصلاة التى كان يتهيأ لها حين حال الأغتيال الأثيم بينه وبين بلوغها أو إتمامها . . وحين يفرغون من صلاتهم ، ويعودون إليه ، كما يعود فى نفس الوقت ، بعض الرجال ممسكين بالقاتل عبد الرحمن بن ملجم — يفتح الإمام عينيه ، فتقعان عليه ، فيهز رأسه فى أسى حين يعرفه ويقول :

— أهو أنت . . ؟ لطالما أحسنْتُ إليك . .

ويُلقى البطل العظيم على وجوه بنيه وأصحابه نظرة ، فيراها تتفجَّر غيظاً ، وتضطرم نِقمة ، ويُحسُّ بَرد الموت يَسرى فى أوصاله ، ويكاد يرى المصير الذى سيحيق بـ « ابن ملجم » . يكاد يرى الانتقام المروِّع الذى سيثأر له به أولاده ، فيتقدم هو فى إصرار ليحمى قاتله من أيَّة مجاوزة أو تخط لحدود القصاص المشروع .

وهكذا ناداهم إليه ، وخرجت الكلمات من فمه مبحوحة متقطعة لترسم فى « العظمة الإنسانية » التى أفاءها القرآن على « على » لوحة باهرة .

قال لبنيه ولأهله :

[أحْسِنُوا نزُلَه . .

وأكرموا مَثْوَاه . .

« فإن أعِشْ ، فأنا أولىّ بدمه قِصاصاً أوعَفواً . .

« وإن أمُتْ ، فألحقُوه بى ، أُخاصمه عند ربِّ العالمين . .

« ولا تقتُلوا بى سواه . .

« إن الله لا يُحبُّ المعتدين] . .

لِندَعْ هذا المشهد بغير تعليق ، فلن نجد كلمات ترتفع إلى مستواه . ! !

ولننتقل إلى مشهد آخر ، أو إلى وجه آخر من مشهد الختام فى حياة الإمام . . ! !

* * *

فى لحظات نهايته ، زاره وفد من أصحابه ، وسألوه أن يستخلف عليهم ابنه « الحسن » من بعده ، فأبى وقال :

[لا آمرُكم ، ولا أنهاكم . .

« أنتم بأموركم أبْصَر] . .

وأرادوا أن يحملوه على ما يريدون ، فوضعوا أناملهم على الوتر الذى يعرفون أنه يهزُّ « ابن أبى طالب » من أعماقه ، وقالوا له :

– وماذا تقول لربك ، إن لقيتَه دون أن تستخلف علينا . . ؟

فأجابهم :

[أقول له : تركتهم دون أن أستخلف

عليهم . كما ترك رسولُك المسلمين

دون أن يستخلف عليهم] !

ثم دعا بنيه ، وعلى رأسهم « الحسَن » رضى الله عنهم أجمعين .

وراح يُملى عليه وصيته :

* [. . أوصيكُم بتقوى الله ربكم ،

ولا تمُوتُنَّ إلاَّ وأنتم مُسْلمون .

* « واعْتصمُوا بحَبْلِ اللهِ جَميعاً ولا تفرَّقوا فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :
إن صلاحَ ذاتِ البَيْن . أفضل من الصلاة والصيام .
* « اللهَ ، اللهَ فى القرآن ، لا يسبقنكم إلى العمل سابق . .
* « اللهَ ، اللهَ فى الفقراء والمساكين ، أشْركوهم فى مَعاشكمُ . .
* « لا تخَافُنَّ فى الله لوْمَةَ لائِم ، يَكْفِكُم من أرادكُم وبغَى عليكم .
* « لا تدَعوا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وقولوا للناس حُسناً كما أمركم الله تعالى .
* « عليكم بالتواصُل وإياكم والتدابر وتعاوَنوا على البرِّ والتقوى ، ولا تعاوَنوا على الاثم والعدوان . .]

* * *

وقع الاعتداء على حياة الإمام فجر يوم الجمعة الثامن عشر من رمضان عام أربعين من الهجرة ، وفاضَتْ روحه الطاهرة المطهّرة مع غروب يوم السبت التاسع عشر من رمضان .

وهكذا ، آب المسافر إلى وطنه . . وعاد إلى منزله . !

ورحل « ابن أبى طالب » عن الدنيا . . لكنّ حياته والأيام التى عاشها على الأرض تحولت إلى شمس أخذت مكانها العالى فى حياة البشرية وتاريخها ، وراحت تجذب إلى مدارها قِيَمَ الحق ، والبطولة ، والإيمان ، والخير والشرف .

وهكذا رحل الإمام ، وما رَحَل . .

وظعَن ، وما ظعَن . .

فهو الظّاعن الحاضر . .

وهو الراحل المُقيم . .

لقد فتح لذكره ، ولذكراه أبواب الخلود حينما ترك لذوى الدنيا دنياهم ، واختار الله ورسوله ، والدار الآخرة . .

ولقد احتوَشتْه العواصف ، والأعاصير ، لكى تُزيغه فى ظلامها عن الطريق . . أو تُفقده بعض رشده ، أوتشغَله عن غاياته ومبادئه . . فما زاغ عن الطريق . . ولا فقد الرُّشد . . ولا سَئم صحبة مبادئه . . وحين أدركه الموت وجده عملاقاً يحمل رايتَه . . ! !

وهذا الطراز النادر ، من البشرية ، تمنحه المقادير الخلود ، فلا تسلمه للنسيان ولا للعدم ، لأنه يُشكل للإنسانية ضميرَها ، ونهاها .

وإن سيرة « ابن أبى طالب » لناهضَةٌ فى مجال خلودها العظيم ، تلقى على الجنس البشرى فى كل أزمانه وبُلدانه ، نبأ الولاء العجيب للحق .

ولاء الطفل ، وولاء الشاب ، وولاء الشيخ . .

ولاء المقاتل ، وولاء الناسِك . .

ولاء المواطن ، وولاء الحاكم . .

ولاء ما تجد بينه فى شتَّى مراحل العمر ، وتباين الأوضاع مِنْ تفَاوُت .

ذلك أنه ولاءٌ مطبوع ، لا ولاء مصنوع .

ولاءُ الفطرة ، لا ولاء الاحتراف .

ولاء اليقين ، لا ولاء المنفعة .

* * *

وإذا كان الولاء للحق يتمثل أوَّل ما يتمثل فى قَهر الدنيا . والتفوق على إغرائها وفُتونها ، فإن « ابن عم الرسول » وتلميذه العظيم ، قد بلغ فى ذلك المدى ، وجاوز المستطاع ! !

ها هوذا ، يخرج إلى سوق الكوفة ، وهو خليفة المسلمين وأمير المؤمنين ، حاملاً أحد أسيافه الأثيرة لديه ، الحبيبة إليه عارضاً إياه للبيع وقائلاً :

[مَن يشترى سيفى هذا . ؟ فو اللهِ لو
كان معى ثمن إزار ما بعتُه] ! !

لماذا هذه الفاقة . وبيت المال يستقبل كل يوم من أقطار الإسلام مالاً غدَقاً . . ومن حقه كأمير للمؤمنين أن يأخذ منه كفايته . . ؟ ؟

لماذا يُصر على أن يطحن بنفسه دقيقه ؟ ويُرقّع مدرعته حتى لا يبقى فيها مكان لرقاع جديدة . . ؟ !

لماذا لا يأكل الخبز إلا قديداً مخلوطاً بنخالته ؟ ويهرب من قصر الإمارة بالكوفة إلى كوخ من طين . . ! !

نقول لماذا . . ؟

لأن الولاء للحق ، والزّهْوَ بالدنيا لا يجتمعان .

ولقد تعلّم ذلك من قدوة سلفَت ، طالما كان يلهج بها ذاكراً ، ومُذكِّراً . .

تلك القدوة التى لم تَغِب عن خاطره لحظة من نهار والتى عبرّ عنها فقال :

[فى رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذْ قُبضَت عنه أطرافها ، ووطِّئت
لغيره أكنافها . .

« وفى موسى كليم الله ، إذ يقول :
ربِّ إنِّى لما أنزلتَ إلىَّ من خيرٍ فقيرٍ ،
ووالله ما سأله إلا خبزاً يأكله .

« وفى المسيح عيسى بن مريم ، الذى
كان يلبس الخَشن . ويأكل الجَشب
دابَّته رجلاه ، وخادمه يداه] . . ! !

تلك هى المنازل العُلى التى يُحلِّق عندها البطل الزاهد الأوَّاب وهو لهذا لا يعدل شيئاً بِجَشِب الطعام وخَشِن الثياب . ! !

لقد كانت هوايته الكبرى ، إهانة الدنيا ، وإذلال مغرياتها الهائلة بأن يرفع فى وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج ، تقول لتلك المغريات : لا . . ! !

فلما وَلى أمر المسلمين ، وصار لهم خليفة وأميراً ، تحوَّلت الهواية إلى واجب . . !

أجل — آنئذ لم يعد نبذ الدنيا وإذلال سلطانها وإغرائها مجرد هواية

لبطولته ، أو رياضة لروحه . بل صارت واجباً تفرضه مسئوليات الحكم ، وتبعات القُدوة . .

وآنئذ سمعناه يقول :

[أأقنـع من نفسى بـأن يُقـال
أمير المؤمنين ، ثم لا أشارك المؤمنين فى
مكاره الزمان . . ؟ !
« والله لو شئت لكان لى من صَفو
هذا العسل ، ولُباب هذا البُّر ،
ومناعم هذه الثياب ولكن ، هيهات
أن يغلبنى الهوى ، فأبيت مِبطاناً
وحولى بطون غَرثى وأكبادٌ حَرَّى] . . ! !

* * *

هو إذن مُقيم لم يرحل . .

يُعلِّم الناس فى كل جيل وعصر ، أن الولاء للحق أثمن تكاليف الإنسان . .

ويعلم الحكام فى كل جيل وعصر ، أن الولاء للحق يعنى رفض إغراء الدنيا . ورفضَ غرور السلطان . .

وهو مقيم لم يرحل . .

يجد عصرنا هذا فى نهجه وحكمه أستاذاً ومعلماً وهادياً .

فاليوم ، حيث تعبئ الحضارة كل قواها لمحاربة الفقر ، وإرباء الكفاية ، وتوزيع العدل ، نجد أمير المؤمنين علياً . . يدرك من قرابة

ألف وأربعمائة عام « بُؤس الفقر » و « وظيفة المال » إدراك الحاكم المسئول ، لا إدراك الواعظ المتَمنى .

انظروا . .

ها هو ذا « ناسِكٌ » لم يمنعه نُسُكُه ، وزهده عن أن يعرف ضراوة الفقر وبؤسه وعداءه لتقدم الروح والضمير فيقول قولته الباهرة :

[لو كان الفقر رجلاً لقتلتُه] . ! !

وها هو ذا يبدأ الساعات الأولى من حكمه وخلافته بوقف تضحم الثروات التى سببها التمييز فى الأنصبة والعطاء بين الذين أسلموا قبل الفتح ، والذين أسلموا بعده . . فيلتزم منهج التسوية فى العطاء .

وفى حدود قدرة « بيت المال » يأخذ كلٌّ حاجته ولا يزيد . .

وإنه ليفحم المعارضين لمنهجه بكلمات قِصار لكنها كِبار . إذ يقول . .

[لو كان المال مالى ، لسوَّيت بينهم ،

فكيف والمال مال الله ، وهؤلاء ،

عباده . . ؟]

إن « وظيفة المال » عنده ، تتمثل فى سد حاجات الشعب فرداً فرداً . .

وهو – أى المال – ليس « مثوبة » على دين ، ولا تكريماً لمركز ، بل ولا ثمناً لجُهد . .

إنه قيام بضرورات العيس ، وسدٌّ لحاجات الناس ، لا أكثر من هدا ، ولا أقلّ

وهو بهذه المثابة ، لا يصلح قط أن يكون « حِكراً » ولا أن يكون

« دُولة » بين أيدى قِلَّة مُثرية .

إن « تحديد إقامة المال » فى بضْع أَيْدٍ ، أو بضعة بيوت ، هدْر لوظيفته و إلغاء لدوره الصحيح فى فقه الإمام ، الذى هو فِقْه الإسلام . .

من أجل هذا قال كلمات راشدة صاغ بها مبدأ من أعظم مبادئ حكمه وحكومته .

[إن الله فرضَ فى أموال الأغنيـــاء
أقوات الفقراء . .
« فما جاع فقير ، إلا بتخمة غَنى] . .

من العسير أن نجد عبارة تحدثنا عن وظيفة المال ويجتمع فيها المنطق العلمى ، والألَق الإنسانى ، على هذا النسق الفريد والرشيد !

[إن الله فرضَ فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا
بتخمة غنى] .

ألا وإن « الإمام » بهذا المبدأ ، لا ينفى عن المال نزوة الاحتكار فحسب . بل ينفى عنه كذلك نزوة السَّرف فى إنفاقه والجموح فى طلب المناعم به .

فجوع الفقير ناشئ عن تخمة الغنى . .

والجوع والتخمة — كلاهما مظهر لخلَلٍ فى وظيفة المال وعدالة التوزيع .

فحين تأخذ وظيفة المال دورها الصحيح فى تغطية المعايش وسد الحاجات بغير سرف أو ترف . . فآنئذ لا توجد « التخمة » التى

تخلق الجوع ، ولا يوجد « الجوع » الذى يحقد على التخمة .

وعبارته الرشيدة هذه :

[إن الله فرض فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء] .

تعطينا دلالتُها الرائعة حكماً فقهيًّا باهراً ، هو أن أموال الأغنياء ليست حقاًّ خالصاً لهم ما دام فى مجتمعهم فقراء . . بل هى حق لهم وللفقراء معاً . . هى حق للفقراء الذين خلَت منه أيديهم ، بقدر ما هى حق للأغنياء الذين تمتلئ به أيديهم ! !

ولقد كان « الإمام » رضى الله عنه يضع مبدأه هذا كما يضع كل مبادئه موضع التنفيذ السَّديد ، لا يصرفه عن ذلك تلك الفتن المجنونة حوله ، ولا الحرب المتسعِّرة ضده .

تُرى هل كان لسياسته هذه دور فى تألُّب الأحقاد عليه وانفضاض الذين كانوا أنصاره بالأمس من حوله ؟ !

هل لعبت مخاوف المسلمين الذين أثروْا ثراءً كبيراً ، والذين كانوا فى طريقهم إلى الثراء دوراً غير منظور فى محاربة الخليفة الذى رفع هذا الشعار ، وهذا المبدأ :

[إن الله فرض فى أموال الأغنياء
أقوات الفقراء] . ؟

* * *

على أية حال ، فقد رحل عن الدنيا – الشكل الخارجى – للبطل : أما موضوعه الحىّ ومضمونه النقىّ ، فقد بقيا غذاء للحقيقة ورِيًّا .

وسيظل « الإمام » حيًّا فى جميع القيم وفى كل الحقائق التى عاش يناضل دونها ، ومات حاملاً رايتها .

سيظل حياً وماثلاً فى فضائله وعظائمه التى صاغ منها حياة امتدت إلى الثالثة والستين ، والتى أجاد وصفها ضِرار بن ضمرة الكنانى .

فقال واصِفاً الإمام :

« كان بعيد المدى ، شديد القُوى . .
يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً . .
يتفجَّر العلم من جوانبه ، وتنطلق الحكمة من لسانه . .
يستوحِش من الدنيا وزهرتها ،
ويأنس بالليل ووحشته . .
« كان غزير الدمعة ، طويل الفكرة ،
يقلب كفيه ويخاطب نفسه .
« يَعجبه من اللباس ما خشُن ، ومن الطعام ما جَشُب . .
« وكان فينا كأحدنا – يجيبنا إذا سألناه ، ويبتدئنا إذا أتيناه ، ويأتينا إذا دعوناه .
« وكنا والله مع قُربه منا لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .
« وكان إذا تبسَّم فعَن مثل اللؤلؤ

المنظوم . . يعظم أهل الدين ،
ويقرب المساكين .
« لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس
الضعيف من عدله .
« وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه ،
وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت
نجومه وقد مثل فى محرابه ، قابضاً
على لحيته ، يتململ تملْمل السليم
ويبكى بكاء الحزين .
« فكأنى أسمعه وهو يقول : يادنيا ،
يا دنيا ، إلىَّ تعرّضت ، أم إلىّ
تشوّقت ؟ هيهات هيهات ، غُرِّى
غيرى .
« قد أَبَنْتُكِ ثلاثاً ، لا رَجعة فيها ! !
« فعمرك قصير . . وعيشك حقير . .
وخطرك كبير . .
« آه من قِلّة الزاد . .
« وبُعد السفر . .
« ووحشةِ الطريق . . » ! !

* * *

لقد كان حظ الإمام مع الناس عاثراً . .

ولكن حظوظه مع نفسه فى طهرها وتُقاها ، كانت رابيَة ووافَية . .

فبغير عَونٍ من تأييد يبذله مؤيدون وأصدقاء . .

وبغير جزعٍ أمام المؤامرات الضارية ، يثيرها فى وجهه أعداء ، تِلْوَ أعداء . . وقف « الإمام علىّ » يبنى وحده – بإيمانه الفرد ، وبساعده الأشَدّ ، حياةً سامقة تبقى على مَرِّ الزمان « مناراً » لذوى الرُّشد والنُّهىَ . .

* * *

ولئن كان لم ينصفه الذين غلَوْا فى حَربه . .

ولم ينصفه الذين غلَوْا فى حُبِّه . .

فقد أنصفته عظمته الفريدة ، إذ فرضَت على الأعداء جلاَلَها . .

وعلى الأصدقاء استِغناءَها . .

وسارت على وجه الزمان طاهرة ، ناضرة ، ظافرة . .

وَتلكُمْ هى العظمَة حقًّا . . ! !

كتب للمؤلف

١ – من هنا .. نبدأ
٢ – مواطنون .. لا رعايا
٣ – الديمقراطية ، أبداً
٤ – الدين للشعب
٥ – هذا .. أو الطوفان
٦ – لكى لا تحرثوا فى البحر
٧ – لله ، والحرية
٨ – معاً على الطريق – محمد والمسيح
٩ – إنه الإنسان
١٠ – أفكار فى القمة
١١ – نحن البشر
١٢ – إنسانيات محمد
١٣ – الوصايا العشر
١٤ – بين يدى عمر
١٥ – فى البدء كان الكلمة
١٦ – كما تحدث القرآن
١٧ – وجاء أبو بكر
١٨ – مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره
١٩ – كما تحدث الرسول
٢٠ – أزمة الحرية فى عالمنا
٢١ – رجال حول الرسول
٢٢ – فى رحاب على
٢٣ – وداعاً . . عثمان
٢٤ – أبناء الرسول فى كربلاء
٢٥ – معجزة الإسلام: عمر بن عبد العزيز
٢٦ – عشرة أيام فى حياة الرسول
٢٧ – والموعد الله

رقم الإيداع	١٩٨٩ / ٨٨٤١
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢٨٢١-٤ ISBN

١ / ٨٩ / ١٤٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)